بيت العرب
للتوثيق العصري

فلسفة الثورة



بقلم
جمال عبد الناصر

فلسفة الثورة

بقلم
جمال عبد الناصر

١٩٩٦

تقديم الناشر

الثورة تعنى التغيير نحو الأفضل من وجهة نظر القائمين بها .. ولكن التغيير إذا كان عشوائيا وليد الصدفة وحدها فإنه يرتب آثاراً ضارة بالمجتمع ، حاضره ومستقبله ، بحكم افتقاده لأهداف واضحة وعدم ارتكازه على أسس قوية .

وإذا كان التغيير منقوصاً معتمداً على جانب واحد فى العملية السياسية دون أن يشمل باقى الجوانب ، فإنه يصبح مجرد خطوة لايدرك مايليها من خطوات ، ويتحول إلى وسيلة لتحقيق مصالح ذاتية لفرد ، أو لجماعة ، أو لفئة محدودة فى المجتمع .

ولقد شهد العالم منذ الحرب العالمية الثانية ، وحتى الآن ، نماذج متعددة من هذين النوعين من التغيرات العشوائية .. أو المنقوصة ، ومن ثم فقد كل منها إتجاهه وغاب عنها المضمون الحقيقى للثورة فى دولها أو مجتمعاتها .

من هنا أهمية الرجوع إلى **كتاب فلسفة الثورة** الذى وضعه الزعيم **جمال عبد الناصر** فى مرحلة مبكرة من قيام الثورة .

فالكتاب يعد – من جانب – سياحة فى آفاق الزمان والمكان بحثاً عن الجذور الأصلية لقيام الثورة فى ضمير الذين خططوا لها .

ويلقى الضوء – من جانب آخر – على اجتهادات هؤلاء المخططين وأسلوبهم فى تنمية التربه الثورية داخل كل منهم .

ويطرح – من جانب ثالث – حقيقة الأهداف وأبعاد الرؤى التى تطلع قادة الثورة إلى تحقيقها ، والخريطه السياسية والإجتماعية التى سعوا إلى إعادة رسمها لمصر ، بعد ليلة الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ .

ومن الأهمية بمكان ، إعادة تقديم هذه الصورة لابناء الجيل الحالى ، فبقدر ماتمثله ثورة يوليو من نقطة تحول ضخمه فى التاريخ المصرى على إمتداده الطويل .. فإننا بلاشك فى حاجة إلى إستجلاء الكثير من المنطلقات التى قادت إلى قيامها حتى نتفهم الظروف والإجراءات التى أعقبت قيامها

وقد أوضح . **كتاب فلسفة الثورة** ، أنها لم تكن وليدة حادث عارض بل نتاج حلقات متصلة من مراحل الكفاح الوطنى منذ بداية القرن التاسع عشر، وحتى منتصف القرن العشرين ، ولقد أستوعب **جمال عبد الناصر** التاريخ المصرى بعمق ، وتولدت فى نفسه بذور الرغبة فى التغيير من واقع عايشه وأصطدم به فى ظل الإحتلال الإنجليزى ، وفساد القصر ، وسيطرة طبقة محدودة على مصادر السلطة والثروة فى المجتمع المصرى، كما صقلت التجارب التى مر بها أو عاصرها وكان أبرزها حادث الرابع من فبراير ١٩٤٢ عندما فرضت دبابات الإنجليز تولية مصطفى النحاس لرئاسة الوزراء ، وحرب فلسطين عام ١٩٤٨ عندما تحالفت قوى

الصهيونية مع سلطة الإنتداب البريطانى للاستيلاء على فلسطين والتى قدمت لهذه المجموعة من الضباط صورة عن الأوضاع فى الدول العربية الأخرى تكاد تتطابق مع مايجرى فى مصر من فساد أو تآمر .

وقد أسفرت هذه التجارب كلها عن الإقتناع بضرورة التغيير وكان على عبد الناصر ورفاقه أن يختاروا الوسيلة الملائمة .. وفكر مع زملائه فى أختيار طريق العنف والإغتيالات ولكنهم سرعان ماتراجعوا واستبعدوا هذا الأسلوب كلية ، وحافظوا على عهدهم ، فكانت ثورة بيضاء لم تسل فيها نقطة دم واحدة .

فكروا على سبيل المثال أن يعملوا على مواجهة اليهود فى فلسطين ، من خارج نطاق السلطة الرسمية من خلال شن عمليات فدائية أو غارات جوية يقودها الطيارون من أعضاء التنظيم أمثال عبد اللطيف البغدادى وحسن ابراهيم وغيرهم ، ولكن جاء قرار دخول الحرب رسمياً ليوقف هذا التخطيط .

وأنتهوا إلى أن الجيش وطليعته ، الوطنية ، المتمثلة فى هؤلاء الضباط هو أصلح من يقود هذه المسيرة ، ويتولى إجراء التغيير المطلوب مباشرة .

ولأن إستيلاء الجيش على السلطة لايمثل نهاية المطاف فقد تحدث عبد الناصر فى فلسفة الثورة عن برنامج العمل بعد إسقاط النظام السابق ، مؤكداً على مجموعة من المبادىء :

اولاً : أهمية العمل الجماعى والإندماج ضمن إطار المصلحة العامة بعيداً عن المنطلقات الفردية وحدها ، وهاجم بقوة نزعات « الأنا » التى سيطرت على توجهات العديد من القيادات التى كانت متواجدة فى ذلك الوقت ، سواء فى الجهاز الحكومى ، أو الأحزاب السياسية ، أو الجامعات ، أو المؤسسات الاقتصادية والتى كانت تدفع كل فرد أو فئه إلى التركيز على تمجيد ذاته ، وتشويه صورة الآخرين .

ثانيا : إن مصالح الأغلبية الساحقة من أبناء الشعب هى المحرك الأساسى لأى قرار يتم إتخاذه أو سياسة يجرى وضعها ، رغم إدراك قادة الثورة أن ذلك قد يحمل فى طياته بعض الأضرار لبعض الفئات الأقلية، مثل قانون الإصلاح الزراعى والذى استهدف مصالح الأغلبية من الفلاحين ، على حساب الأقلية من كبار ملاك الأرض .

ثالثاً: إن مصر بلد لايمكن عزله أو انعزاله داخل حدوده وعن العالم الذى يحيط بها « لقد مضى عهد العزله ، ولم يعد من مفر أمام كل دولة من أن تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها فى المكان ، وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه ، وماهو مجالها الحيوى وميدان نشاطها ودورها الإيجابى فى هذا العالم المضطرب » .

رابعاً : وإرتباطاً بالمبدأ السابق ، فإن دوائر الحركة الخارجية لمصر يجب أن تبدأ بالدائرة العربية التى يربطها بمصر تاريخ مشترك ومصالح

عميقة ، وأن أى تهديد يوجه لدولة عربية يكون موجهاً بنفس الدرجة إلى كل الدول العربية . وهنا يعطى الكتاب أهمية خاصة للبترول العربى وما ينتظره من دور حيوى فى السياسة الدولية ومايمكن أن يوفره من مصدر قوة للعرب .

ويلى ذلك الدائرة الأفريقية ، ليس فقط بحكم الموقع الجغرافى فى القارة ، ولكن بحكم تطلع شعوب القارة إلى مصر ، لمعاونة هذه الشعوب التى تنشد النور والحضارة فى أعماق القارة ، وقد دعى جمال عبد الناصر فى هذه الفترة المبكرة إلى إنشاء معهدا ضخماً لأفريقياً يعمل على كشف أسرار القارة ودعم تقدم شعوبها ورفاهيتها .

ثم ينتقل إلى الدائرة الإسلامية بإعتبارها الدائرة الثالثة لسياسة مصر الخارجية أملاً فى إرساء تعاون قوى بين مختلف الدول الإسلامية يساعد على توظيف إمكانياتها الهائلة لصالح شعوبها .

تلك كانت رؤية **جمال عبد الناصر** التى ضمنها **كتاب فلسفة الثورة** والذى كان بمثابة الخطوط العامة لبرنامج العمل بعد طرد الملك فاروق ، وإسقاط النظام الملكى ، وإنهاء الإحتلال البريطانى .

ولقد احتوى الكتاب على العديد من الإشارات حول بعض الأسماء والوقائع والأماكن التى قد تكون غامضة على أبناء الجيل الحاضر ، ومن ثم حرصنا على تزويد هذه الطبعة ببعض الشروح لهذه الأسماء والوقائع

والأماكن روعى فى استقصائها الإستناد إلى مراجع أصلية موثقة لعلها تنفع فى إستكمال الصورة التى كانت قائمة وقت إصدار الكتاب لأول مرة فى عام ١٩٥٣ .

واخيراً فإذا كان **كتاب فلسفة الثورة** قد تم تقديمه فى السنوات الأولى لثورة يوليو ١٩٥٢ بهدف شرح الإطار الفكرى وبرنامج العمل للطليعة التى قامت بها ، فإن ما حدث بعد ذلك من إنتصارات ضخمة ، وتجارب مريرة وسنوات إنجاز ، وفترات قصور ، شكلت فى مجملها مرحلة تاريخية من أدق المراحل التى مرت بها مصر ، وأثارت جدلاً واسعاً تراوح بين الهجوم العنيف والدفاع المتحمس عن ممارسات قادة الثورة لكنها أبداً لم تمس جوهر هؤلاء الرجال الذين وضعوا رؤوسهم على أكفهم وتحركوا فى ليلة من ليالى يوليو ١٩٥٢ ليكتبوا صفحة من أنصع الصفحات فى التاريخ المصرى الحديث .

الناشر

مقدمة

ان هـــذه الخـواطر عـــن فلسفـة الثـورة ، ليست مـحـــاولة لتـأليف كتاب ...

ولا هي مـحـاولة لشرح أهداف ثورة ٢٣ يوليو وحـوادثها .. إنما هي شيء آخر تماما ...

إنها أشبه ما تكون بدورية استكشاف...

إنها مـحاولة لاستكشاف نفوسنا ، لكي نعرف من نحن ومـاهو دورنا في تاريخ مصر المتصل الحلقات ...

ومـحـاولة لاستكشاف الظروف المـحيطة بنا في الماضي والحـاضر ، لكي نعرف في أي طريق نسير ...

ومـحـاولة لاستكشاف أهدافنا والطاقة التي يجب أن نـحـشدها لنحقق هذه الأهداف ...

ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا ، لنعرف أننا لانعيش في جزيرة يعزلها الماء من جميع الجهات ...

هذا هو الذي قصدت اليه ...

مـجرد دورية استكشاف في الميدان الذي نـحـارب فيـه ، مـعركـتنا الكبرى من أجل تحرير الوطن من كل الأغلال ...

جمال عبد الناصر

الجزء الأول

قبل أن أمضى فى هذا الحديث اريد أن أقف قليلا عند كلمة « فلسفة » .

ان الكلمة ضخمة وكبيرة ...

وأنا أحس وأنا واقف حيالها أنى أمام عالم واسع ليس له حدود ، وأشعر فى نفسى برهبة خفية تمنعنى من أن أخوض فى بحر ليس له قاع ، ولا أرى له على البعد ، من الشاطىء الذى أقف فيه ، شاطئاً آخر أنتهى اليه ...

والحق أنى أريد أن أتجنب كلمة فلسفة فى هذا الذى سأقوله ،.

ثم أنا أظن أنه من الصعب على أن أتحدث عن فلسفة الثورة . من الصعب لسببين :

أولهما أن الحديث عن فلسفة ثورة ٢٣ يوليو يلزمه أساتذة يتعمقون فى البحث عن جذورها الضارية فى أعماق تاريخ شعبنا وقصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يملؤها الهباء وكذلك ليس فيها مفاجآت تقفز الى الوجود دون مقدمات .

ان كفاح أى شعب ، جيلا بعد جيل ، بناء يرتفع حجرا فوق حجر ...

وكما أن كل حجر فى البناء يتخذ من الحجر الذى تحته قاعدة يرتكز

عليها ، كذلك الأحداث فى قصص كفاح الشعوب ...

كل حدث منها هو نتيجة لحدث سبقه ، وهو فى نفس الوقت مقدمة لحدث مازال فى ضمير الغيب ...

★ ★ ★

ولست أريد أن أدعى لنفسى مقعد أستاذ التاريخ ...

ذلك آخر مايجرى به خيالى ...

ومع ذلك فلو حاولت محاولة تلميذ مبتدىء ، فى دراسة قصة كفاح شعبنا ، فأنى سوف أقول مثلا أن ثورة ٢٣ يوليو هى تحقيق للأمل الذى راود شعب مصر ، منذ بدأ فى العصر الحديث يفكر فى أن يكون حكمه بأيدى أبنائه ، وفى أن تكون له نفسه الكلمة العليا فى مصيره ...

لقد قام بمحاولة لم تحقق له الأمل الذى تمناه ، يوم تزعم السيد عمر مكرم حركة تنصيب محمد علي والياً على مصر ، باسم شعبها (١) .

وقام بمحاوله لم تحقق له الأمل الذى تمناه ، يوم حاول عرابى أن يطالب بالدستور (٢) .

وقام بمحاولات متعددة ، لم تحقق له الأمل الذى تمناه ، فى فترة

الغليان الفكرى التى عاشها بين الثورة العرابية وثورة سنة ١٩١٩ (٣) .

وكانت هذه الثورة الأخيرة - ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول–محاولة أخرى لم تحقق له الأمل الذى تمناه (٤).

★ ★ ★

وليس صحيحاً أن ثورة ٢٣ يوليو قامت بسبب النتائج التي أسفرت عنها حرب فلسطين (٥) .

وليس صحيحا كذلك أنها قامت بسبب الأسلحة الفاسدة التى راح ضحيتها جنود وضباط (٦) .

وأبعد من ذلك عن الصحة ما يقال من أن السبب كان أزمة إنتخابات نادى ضباط الجيش (٧).

إنما الأمر فى رأيى كان أبعد من هذا وأعمق أغواراً .

ولو كان ضباط الجيش حاولوا أن يثوروا لأنفسهم لأنه قد غرر بهم فى فلسطين أو لأن الأسلحة الفاسدة أرهقت أعصابهم ، أو لأن اعتداء وقع على كرامتهم فى انتخابات نادى ضباط الجيش ، لما كان الأمر يستحق أن يكون ثورة ، ولكان أقرب الأشياء الي وصفه بأنه مجرد تمرد ، حتي وأن كانت الأسباب التى أدت إليه منصفة عادلة فى حد ذاتها ...

لقد كانت هذه كلها أسباباً عارضة ...

وربما كان أكبر تأثير لها أنها كانت تستحثنا على الأسراع فى طريق الثورة ، ولكننا كنا من غيرها نسير على هذا الطريق.

★ ★ ★

وأنا أحاول اليوم ، بعد كل ما مر بى من أحداث ، وبعد سنوات طويلة من بدء التفكير فى الثورة ، أن أعود بذاكرتى وأتعقب اليوم الأول الذى اكتشفت فيه بذورها فى نفسى .

إن هذا اليوم أبعد فى حياتى من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٥١ ، أيام ابتداء أزمة نادى الضباط ، ففى ذلك الوقت كان تنظيم الضباط الأحرار قائما يباشر عمله ونشاطه ، بل أنا لا أغالى اذا قلت ان أزمة انتخابات النادى أثارها أكثر من أى شىء أخر ، نشاط الضباط الأحرار ، فقد شئنا فى ذلك الوقت أن ندخل معركة نجرب فيها قوتنا على التكتل وعلى التنظيم .

وهذا اليوم – فى حياتى أيضا – أبعد من بدء فضيحة الأسلحة الفاسدة ، فقد كان تنظيم الضباط الأحرار موجودا قبلها ، وكانت منشوراتهم أول نذير بتلك المأساة ، وكان نشاطهم وراء الضجة التى قامت حول الأسلحة الفاسدة .

بل إن هذا اليوم فى حياتى أبعد من يوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٨ ذلك اليوم الذى كان بداية حياتى فى حرب فلسطين .

★ ★ ★

وحين أحاول الآن أن أستعرض تفاصيل تجاربنا فى فلسطين، أجد شيئا غريبا ، فقد كنا نحارب فى فلسطين ، ولكن أحلامنا كلها كانت فى مصر .

كان رصاصنا يتجه إلى العدو الرابض أمامنا فى خنادقه ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذى تركناه للذئاب ترعاه ...

وفى فلسطين كانت خلايا الضباط الأحرار تدرس وتبحث وتجتمع فى الخنادق والمراكز .

فى فلسطين جاءنى صلاح سالم وزكريا محيى الدين [٨] ، واخترقا الحصار إلى الفالوجه ، وجلسنا فى الحصار لانعرف له نتيجة ولا نهاية ، وكان حديثنا الشاغل وطننا الذى يتعين علينا أن نحاول إنقاذه ...

وفى فلسطين جلس بجوارى مرة كمال الدين حسين [٩] وقال لى وهو ساهم الفكر شارد النظرات : هل تعلم ماذا قال لى أحمد عبد العزيز قبل أن يموت [١٠] ؟

قلت : ماذا قال ... ؟

قال كمال الدين حسين وفي صوته نبرة عميقه وفى عينيه نظرة أعمق : لقد قال لى : اسمع ياكمال ، إن ميدان الجهاد الأكبر هــو فى مصر ...

ولم ألتق فى فلسطين بالأصدقاء الذين شاركونى فى العمل من أجل مصر ، وانما التقيت أيضا بالأفكار التى أنارت أمامى السبيل .

وأنا أذكر أيام كنت أجلس فى الخنادق وأسرح بذهنى إلى مشاكلنا ...

كانت الفالوجة محاصرة ، وكان تركيز العدو عليها ضربا بالمدافع والطيران تركيزاً هائلاً مروعاً .

وكثيراً ماقلت لنفسى : ها نحن هنا فى هذه الجحور محاصرين، لقد غرر بنا ، دفعنا إلى معركة لم نعد لها ، لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات ، وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح .

★ ★ ★

وحين كنت أصل الى هذا الحد من تفكيرى ، كنت أجد خواطرى تقفز فجأة عبر ميادين القتال ، وعبر الحدود ، الى مصر ، وأقول لنفسى : هذا هو وطننا هناك ، أنه « فالوجة » أخري على نطاق كبير ... إن الذى يحدث لنا هنا صورة من الذى يحدث هناك ... صورة مصغرة .... وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والأعداء ، وغرر به ... ودفع الى معركة لم يعد لها ، ولعبت بأقداره مطامع ومؤامرات وشهوات وترك هناك تحت النيران بغير سلاح !

★ ★ ★

وأكثر من هذا ، لم يكن الأصدقاء هم الذين تحدثوا معى عن مستقبل وطننا فى فلسطين ، ولم تكن التجارب هى التى قرعت أفكارنا بالنذر والاحتمالات عن مصيره ، بل أن الأعداء أيضاً لعبوا دورهم فى تذكيرنا بالوطن ومشاكله ...

ومنذ أشهر قليلة (١١) قرأت مقالات كتبها عنى ضابط إسرائيلى اسمه « يردهان كوهين » ونشرتها له جريدة « جويش أوبزرفر » وفى هذه المقالات روى الضابط اليهودى كيف التقى بى أثناء مباحثات واتصالات عن الهدنة ، وقال : « لقد كان الموضوع الذى يطرقه جمال عبد الناصر معى دائما ، هو كفاح إسرائيل ضد الانجليز ، كيف نظمنا حركة منظمتنا السريه لهم في فلسطين وكيف استطعنا أن نجند الرأى العام فى العالم وراءنا فى كفاحنا ضدهم ».

★ ★ ★

ثم إن هذا اليوم – اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة فى نفسى – أبعد من حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ (١٤) الذى كتبت بعده خطاباً إلى صديق قلت له فيه :

« ما العمل بعد أن وقعت الواقعة وقبلناها مستسلمين خاضعين خانعين ؟

« الحقيقة أني أعتقد أن الاستعمار يلعب بورقة واحدة في يد التهديد فقط ، ولكن لو أنه أحس أن بعض المصريين ينوون التـ بدمائهم ويقابلون القوة بالقوة لانسحب كأي امرأة من العاهرات ..

وطبعا هذا حاله ، أو تلك عادته ...

أما نحن ، أما الجيش ، فقد كان لهذا الحادث تأثير جديد عل المعنوية ؛ فبعد أن كنت ترى الضباط لايتكلمون إلا عن الفساد أصبحوا يتكلمون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس في سبيل ا وأصبحت تراهم وكلهم ندم ؛ لأنهم لم يتدخلوا – مع ضعفهم الا ويردوا للبلاد كرامتها ويغسلوها بالدماء ، ولكن إن غداً لناظرة قريب

لقد حاول بعضهم بعد الحادث (١٣) أن يعملوا شيئا بغية الانتـ الوقت كان قد فات ، أما القلوب فكلها نار وأسى ...

والواقع أن هذه الحركة ... أن هذه الطعنة ، ردت الروح الـ الأجساد ، وعرفتهم أن هناك كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنهـ هذا درسا قاسيا .

★ ★ ★

وكذلك فان هذا اليوم أبعد فى حياتى من الفوران الذى عشت فيه أيام كنت طالبا أمشى مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور سنة ١٩٢٣ – وقد عاد الدستور بالفعل – فى سنة ١٩٣٥ (١٤) ...

وأيام كنت أسعي مع وفود الطلبة ، إلى بيوت الزعماء نطلب منهم أن يتحدوا من أجل مصر ، وتألفت الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٦ بالفعل على أثر هذه الجهود .

وأذكر أننى فى فترة الفوران هذه ، كتبت خطابا الى صديق من أصدقائى ، قلت فيه ، وكان تاريخه ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥ . « أخى ...

« خاطبت والدك يوم ٣٠ أغسطس فى التليفون ، وقد سألته عنك فأخبرنى أنك موجود فى المدرسة ...

« لذلك عولت على أن أكتب إليك ما كنت سأكلمك فيه تليفونيا ...» قال الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتهم من قوة » ... فأين تلك القوة التى نستعد بها لهم ؟

إن الموقف اليوم دقيق ، ومصر فى موقف أدق .... ونحن نكاد نودع الحياة ونصافح الموت ، فان بناء اليأس عظيم الأركان فأين من يهدم هذا البناء ..؟ »

ثم مضيت فى هذا الخطاب الى آخره .

وإذن فمتى كان ذلك اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة في أعماقى؟ .. إنه بعيد

★ ★ ★

فإذا أضيف الى هذا كله ، أن تلك البذور لم تكن كامنة فى أعماقى وحدى ، وانما وجدتها كذلك فى أعماق كثيرين غيرى ، هم الآخرون بدورهم لايستطيع الواحد منهم أن يتعقب بداية وجودها داخل كيانه ، لاتضح اذن أن هذه البذور ولدت فى أعماقنا حين ولدنا ، وأنها كانت أملا مكبوتا خلقه فى وجداننا جيل سبقنا ...

★ ★ ★

ولقد استطردت وراء هذا كله لأشرح **السبب الأول** الذى من أجله وجدت من الصعب على أن أتحدث عن فلسفة الثورة ، وقلت أن هذا الحديث يلزمه أساتذة يتعمقون فى البحث عن جذورها الضاربة فى أعماق تاريخ شعبنا ..

أما السبب الثانى فهو أننى كنت بنفسى داخل الدوامة العنيفة للثورة .

والذين يعيشون فى أعماق الدوامة قد تخفى عليهم بعض التفاصيل البعيدة عنها ..

وكذلك كنت بايمانى وعقلى وراء كل ما حدث ، وبنفس الطريقة

التى حدث بها ؛ وإذن فهل استطيع أن أتجرد من نفسى حين أتكلم عنه ، وحين أتكلم عن المعانى المستترة وراءه ؟

★ ★ ★

أنا من المؤمنين بأنه لاشىء يمكن أن يعيش فى فراغ ... حتى الحقيقة لايمكن أن تعيش فى فراغ ..

والحقيقة الكامنة فى أعماقنا هى : ما نتصوره أنه الحقيقة أو بمعنى أصح : هى الحقيقة مضافا إليها نفوسنا ...

نفوسنا هى الوعاء الذى يعيش فيه كل مافينا ، وعلى شكل هذا الوعاء سوف يتشكل كل ما يدخل فيه ، حتى الحقائق . وأنا أحاول – بقدر ما تستطيع طاقتى البشرية – أن أمنع نفسى من أن تغير كثيراً من شكل الحقيقة ، ولكن إلى أى حد سوف يلازمنى التوفيق ؟

هذا سؤال !

وبعده أريد أن أكون منصفا لنفسى ، ومنصفا لفلسفة الثورة ؛ فأتركها للتاريخ يجمع شكلها فى نفسى ، وشكلها فى نفوس غيرى ، وشكلها فى الحوادث جميعاً ، ويخرج من هذا كله بالحقيقة كاملة ..

★ ★ ★

واذن فما الذى أريد أن أتحدث عنـه اذا كـنت قـد استبعـدت كلمة « فلسفة » ؟

الواقع أن الذى أملكه فى هذا الصدد شيئان :

أولهما مشاعر اتخذت شكل الأمل المبهم ، ثم شكل الفكرة المحددة ، ثم شكل التدبير العملى ، ثم موضع التنفيذ الفعلى فى منتصف ليل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى الآن .

وثانيهما تجارب وضعت هذه المشاعر - بأملها المبهم وفكرتها المحددة ، وتدبيرها العملى - موضع التنفيذ الفعلى منتصف ليل ٢٣ يوليو حتى الآن....

وعن هذه المشاعر والتجارب أريد أن أتحدث ...

★ ★ ★

لطالما ألح على خاطرى سؤال ، هو :

« هل كان يجب أن نقوم ، نحن الجيش ، بالذى قمنا به فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ؟ »

لقد قلت منذ سطور ، ان ثورة ٢٣ يوليو كانت تحقيقا لأمل كبير راود شعب مصر ، منذ بدأ فى العصر الحديث يفكر فى أن يكون حكمه فى أيدى

أبنائه ، وفي أن تكون له نفسه الكلمة العليا فى مصيره ...

وإذا كـان الأمـر كـذلك ، ولم يكن الذى حـدث يوم ٢٣ يوليـو تمرداً عسكريا ، وليس ثورة شعبية ؛ فلماذا قدر للجيش ، دون غيره من القوى ، أن يحقق هذه الثورة ؟

ولقـد آمنت بالجندية طول عـمرى ، والجندية تجعل للجيش واجبا واحدا ، هو أن يموت على حدود وطنه ، فلماذا وجد جيشنا نفسه مضطرا للعمل فى عاصمة الوطن ، لا على حدوده ... ؟

ومرة أخرى ، دعونى أنبه الى أن الهزيمة فى فلسطين ، والأسلحة الفاسدة ، وأزمة نادى الضباط ... لم تكن المنابع الحقيقة التى تدفق منها السيل ؛ لقد كانت هذه كلها عوامل مساعدة على سرعة التدفق ، ولكنها – كما سبق أن قلت – لايمكن أبدا أن تكون هى الأصل والأساس .

وإذن لماذا وقع على الجيش هذا الواجب ؟

قلت إن هذا السؤال طالما ألح على خواطرى ...

ألح عليها ونحن فى دور الأمل والتفكير والتدبير بعد يوليو .

وألح عليها فى مراحل كثيرة من التجربة بعد ٢٣ يوليو .

ولقد كانت أمامنا مبررات مختلفة قبل ٢٣ يوليو تشرح لنا لماذا يجب

أن نقوم بالذى قمنا به ...

كنا نقول : اذا لم يقم الجيش بهذا العمل فمن يقم به ؟

وكنا نقول : كنا نحن الشبح الذى يؤرق به الطاغية أحلام الشعب ، وقد آن لهذا الشبح أن يتحول الى الطاغية فيبدد أحلامه هو ..

وكنا نقول غير هذا كثيرا ، ولكن الأهم من كل ما كنا نقوله ، أننا كنا نشعر شعورا يمتد الى أعماق وجودنا بأن هذا الواجب واجبنا ، وأننا اذا لم نقم به فإننا نكون كأننا تخلينا عن أمانة مقدسة نيط بنا حملها ...

ولكنى أعترف أن الصورة الكاملة لم تتضح فى خيالى الا بعد فترة طويلة من التجربة عقب ٢٣ يوليو ..

وكانت تفاصيل هذه التجربة .. هى بعينها تفاصيل الصورة .

★ ★ ★

وأنا أشهد أنه مرت على بعد يوم ٢٣ يوليو نوبات اتهمت فيها نفسى وزملائى وباقى الجيش بالحماقة والجنون الذى صنعناه فى ٢٣ يوليو ...

لقد كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة وأنها لاتنتظر الا طليعة تقتحم أمامها السور ، فتندفع الأمة وراءها صفوفا متراصة منتظمة تزحف زحفا مقدسا الى الهدف الكبير ...

وكنت أتصور دورنا على أنه دور طليعة الفدائيين ، وكنت أظن أن دورنا هذا لا يستغرق أكثر من بضع ساعات ، ويأتى بعدها الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير ، بل قد كان الخيال يشط بى أحيانا فيخيل إلى أنى أسمع صليل الصفوف المتراصة وأسمع هدير الوقع الرهيب لزحفها المنظم إلى الهدف الكبير ، أسمع هذا كله ويبدو فى سمعى من فرط إيمانى به حقيقة مادية ، وليس مجرد تصورات خيال ...

ثم فاجأنى الواقع بعد ٢٣ يوليو ...

★ ★ ★

قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان ، وخلعت الطاغية ، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنظمة الى الهدف الكبير ...

وطال انتظارها ...

لقد جاءتها جموع ليس لها آخر ... ولكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال!

كانت الجموع التى جاءت أشياعا متفرقة ، وفلولا متناثرة ، وتعطل الزحف المقدس إلى الهدف الكبير ، وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة تنذر بالخطر ...

★ ★ ★

وساعتها أحسست وقلبى يملؤه الحزن وتقطر منه المرارة ، أن مهمة الطليعة لم تنته فى هذه الساعة ، بل أنها من هذه الساعة بدأت ....

كنا فى حاجة الى النظام ، فلم نجد وراءنا إلا الفوضى ...

وكنا فى حاجة إلى الإتحاد ، فلم نجد وراءنا إلا الخلاف ...

وكنا فى حاجة إلى العمل ، فلم نجد وراءنا الا الخنوع والتكاسل ...

ومن هنا وليس من أى شيء ، أخذت الثورة شعارها (١٥) .

★ ★ ★

ولم نكن على استعداد ...

وذهبنا نلتمس الرأي من ذوى الرأى ، والخبرة من أصحابها ...

ومن سوء حظنا لم نعثر على شيء كثير ...

كل رجل قابلناه لم يكن يهدف الا إلى قتل رجل آخر وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف إلا إلى هدم فكرة أخرى ولو أننا أطعنا كل ما سمعناه ، لقتلنا جميع الرجال وهدمنا جميع الأفكار ، ولما كان لنا بعدها مانعمله، إلا أن نجلس بين الأشلاء والأنقاض نندب الحظ البائس ،ونلوم القدر التعس ! وانهالت علينا الشكاوى والعرائض بالألوف ومئات الألوف ولو أن هذه الشكاوي والعرائض كانت تروي لنا حالات تستحق الانصاف ،

أو مظالم يجب أن يعود إليها العدل ، لكان الأمر منطقيا ومفهوما ، ولكن معظم ما كان يرد إلينا لم يزد أو ينقص عن أن يكون طلبات انتقام ... كأن الثورة قامت لتكون سلاحا فى يد الحاقدين والمبغضين !

★ ★ ★

ولو أن أحدا سألني فى تلك الأيام : « ما أعز أمانيك ؟ لقلت له على الفور : أن أسمع مصريا يقول كلمه انصاف فى حق مصرى آخر .

وأن أحس أن مصريا قد فتح قلبه للصفح والغفران والحب لاخوانه المصريين .

وأن أرى مصرياً لايكرس وقته لتسفيه آراء مصرى آخر .

★ ★ ★

وأن لا أرى هناك بعد ذلك كله أنانية فردية مستحكمة .. .

كانت كلمة « أنا » على كل لسان ...

كانت هى الحل لكل مشكلة ، وكانت الدواء لكل داء ...

وكثيراً ما كنت أقابل كبراء – أو هكذا تسميهم الصحف – من كل الاتجاهات والألوان ، وكنت أسأل الواحد منهم عن مشكلة ألتمس عنده حلا لها ، ولم أكن أسمع إلا « أنا » ...

مشاكل الاقتصاد « هو » وحده يفمها ، أما الباقون جميعا فهم فى العلم بها أطفال يَحْبون .

ومشاكل السياسة « هو » وحده الخبير بها ، أما الباقون جميعا فما زالو فى « ألف باء » لم يتقدموا بعدها حرفا واحد.

وكنت أقابل الواحد من هؤلاء ، ثم أعود إلى زملائى فأقول لهم فى حسرة : لافائدة ... هذا رجل لو سألناه عن مشكلة صيد السمك فى جزائر هاواي (١٦) لما وجدنا عنده جوابا إلا كلمة « أنا ».. !

★ ★ ★

أذكر مرة كنت أزور فيها احدى الجامعات ودعوت أساتذتها وجلست معهم أحاول أن أسمع منهم خبرة العلماء .

وتكلم أمامى منهم كثيرون . وتكلموا طويلا ...

ومن سوء الحظ أن أحداً منهم لم يقدم لى أفكارا ، وإنما كل منهم لم يزد على أن قدم لى نفسه ، وكفاياته الخليقة وحدها لعمل المعجزات ، ورمقنى كل واحد منهم بنظرة الذى يؤثرنى على نفسه بكنوز الارض وذخائر الخلود.

★ ★ ★

وأذكر أنى لم أتمالك نفسى ، فقمت بعدها أقول لهم :

« إن كل فرد منا يستطيع فى مكانه أن يصنع معجزة ، إن واجبه الأول أن يعطى كل جهده لعمله ، ولو أنكم ، كأساتذة جامعات ، فكرتم فى طلبتكم ، وجعلتموهم - كما يجب - عملكم الأساسى ، لاستطعتم أن تعطونا قوى هائلة لبناء الوطن » .

إن كل واحد يجب أن يبقى فى مكانه ويبذل فيه كل جهده . لا تنظروا الينا ، لقد اضطرتنا الظروف أن نخرج من أماكننا لنقوم بواجب مقدس ، ولقد كنا نتمنى لو لم تكن للوطن حاجة بنا الا فى صفوف الجيش كجنود محترفين ، اذن لبقينا فيه .

★ ★ ★

ولم أشأ ساعتها أن أضرب لهم المثل من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، ولم أشأ أن أقول لهم انهم قبل أن يدعوهم الطارىء الذى دعاهم إلى الواجب الأكبر ، كانوا يبذلون فى عملهم كل جهدهم .

ولم أشأ أن أقول لهم ان معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا أساتذة فى كلية أركان الحرب ، وهذا دليل امتيازهم من ناحيتهم كجنود محترفين ...

وكذلك لم أشأ أن أقول لهم ان ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، هم عبد الحكيم عامر (١٧)، وصلاح سالم ، وكمال الدين حسين ، رقوا ترقيات استثنائية فى ميدان القتال فى فلسطين .

لم أشأ أن أقول لهم شيئا من هذا ، لأنى لا أريد أن أفاخر الناس بأعضاء مجلس قيادة الثورة ، وهم اخوتى وزملائى ...

★ ★ ★

وأعترف أن هذا الحال كله سبب لى أزمة نفسية كئيبة . ولكن التجارب فيما بعد ، وتأمل هذه التجارب واستخلاص معانيها الحقيقية ، خففت من وقع الأزمة فى نفسى ، وجعلتنى ألتمس لهذا كله أعذاراً من الواقع عثرت عليها حين اتضحت أمامى – إلى حد ما – الصورة الكاملة لحالة الوطن ؛ وأكثر من هذا أعطتنى الجواب عن السؤال الذى قلت أنه طالما راودنى ، وهو :

« هل كان يجب أن نقوم – نحن الجيش بالذى قمنا به فى ٢٣ يوليو ؟ »

والجواب : نعم ، ولم يكن هناك مهرب أو مفر !

★ ★ ★

وأنـــا الآن أستطيع أن أقول اننا نعيش فى ثورتين وليس فى ثورة واحدة ...

ولكل شعب من شعوب الأرض ثورتان :

ثورة سياسية ، يسترد بها حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه ، أو من جيش معتد أقام فى أرضه دون رضاه .

وثورة اجتماعية ، تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد .

لقد سبقتنا على طريق التقدم البشرى شعوب مرت بالثورتين ولكنها لم تعشهما معا ، وإنما فصل بين الواحدة والثانية مئات من السنين ؛ أما نحن فإن التجربة الهائلة التى امتحن بها شعبنا هى أن تعيش الثورتان معا فى وقت واحد ...

★ ★ ★

وهذه التجربة الهائلة مبعثها أن لكل من الثورتين ظروفاً مختلفة تتنافر تنافراً عجيباً وتتصادم تصادماً مروعاً ...

إن الثورة السياسية ، تتطلب لنجاحها وحدة جميع عناصر الأمة وترابطها وتساندها ونكرانها لذاتها فى سبيل الوطن كله .

والثورة الاجتماعية ، من أول مظاهرها تزلزل القيم وتخلخل العقائد، وتصارع المواطنين مع أنفسهم أفراداً وطبقات ، وتحكم الفساد والشك والكراهية ... والأنانية ...

وبين شقى الرحى هذين ، قدر لنا أن نعيش اليوم فى ثورتين :

ثورة تحتم علينا أن نتحد ، ونتحاب ، ونتفانى فى الهدف ... وثورة تفرض علينا – برغم إرادتنا – أن نفترق ، وتسودنا البغضاء ، ولا يفكر كل منا إلا فى نفسه ...

★ ★ ★

وبين شقى الرحى هذين – مثلا – ضاعت ثورة ١٩١٩ ولم تستطع أن تحقق النتائج التى كان يجب أن تحققها .

الصفوف التى تراصت فى سنة ١٩١٩ تواجه الطغيان ، لم تلبث الا قليلاً حتى شغلها الصراع فيما بينها أفراداً وطبقات ...

وكانت النتيجة فشلاً كبيراً ؛ فقد زاد الطغيان بعدها تحكما فينا ، سواء بواسطة قوات الإحتلال السافرة ، أو بصنائع الإحتلال المقنعة التى كان يتزعمها فى ذلك الوقت السلطان فؤاد وبعده ابنه فاروق ، ولم يحصد الشعب إلا الشكوك فى نفسه ، وإلا الكراهية والبغضاء والأحقاد فيما بين

أفراده وطبقاته .

وشحب الأمل الذى كان ينتظر أن تحققه ثورة ١٩١٩ .

ولقد قلت شحب الأمل ، ولم أقل تلاشى ، ذلك لأن قوى المقاومة الطبيعيةِ التى تدفعها الآمال الكبيرة التى تراود شعبنا ، كانت لا تزال تعمل عملها وتستعد لمحاولة جديدة .

وكان ذلك هو الحال الذى ساد بعد ثورة ١٩١٩ ، والذى فرض على الجيش أن يكون وحده القوة القادرة على العمل .

★ ★ ★

كان الموقف يتطلب أن تقوم قوة يقّرب ما بين أفرادها اطار واحد ، يبعد عنهم إلى حد ما صراع الأفراد والطبقات ...

وأن تكون هذه القوة من صميم الشعب وأن يكون فى استطاعه أفرادها أن يثق بعضهم ببعض .

وأن يكون فى يدهم من عناصر القوة المادية مايكفل لهم عملاً سريعاً حاسما ...

ولم تكن هذه الشروط تنطبق إلا على الجيش...

-كما قلت – هو الذى حدد دوره فى الحوادث ،
الصحة ، وكانت الحوادث وتطوراتها هى التى
ـراع الكبير لتحرير الوطن .

★ ★ ★

ـداية أن نجاحنا يتوقف علىً ادراكنا الكامل
، فيها من تاريخ وطننا ؛ فإننا لم نكن نستطيع
قلم ، وكذلك لم نكن نستطيع أن نؤخر عقارب
الساعة أو نقدمها ونتحكم فى الزمن ... وكذلك لم يكن فى استطاعتنا أن نقوم على طريق التاريخ بمهمة جندى المرور ، فنوقف مرور ثورة حتى تمر ثورة أخرى ونحول بذلك دون وقوع حادث اصطدام ؛ وإنما كان الشىء الوحيد الذى نستطيعه هو أن نتصرف بقدر الإمكان وننجو من أن يطحننا شقا الرحى ! .

وكان لابد أن نسير فى طريق الثورتين معاً .

ويوم سرنا فى طريق الثورة السياسية فخلعنا فاروق عن عرشه ،

سرنا خطوة مماثلة فى طريق الثورة الاجتماعية فقررنا تحديد الملكية (١٨) .

★ ★ ★

ومازلت حتى اليوم أعتقد أنه ينبغى أن تظل ثورة ٢٣ يوليو محتفظه بقدرتها على الحركة السريعة والمبادأة ، لكى تستطيع أن تحقق معجزة السير فى ثورتين فى وقت واحد ، مهما بدا فى بعض الأحيان من التناقض فى تصرفاتنا .

وحين جاءنى واحد من أصدقائى يقول لى : « أنت تطالب بالاتحاد لمواجهة الإنجليز ، وأنت فى نفس الوقت تسمح لمحاكم الغدر أن تستمر فى عملها ...

استمعت اليه ، وكانت فى خيالى أزمتنا الكبيرة ، أزمة شقى الرحى .

أزمه تقتضينا أن نتحد صفاً واحداً وننسى الماضى .

وثورة تفرض علينا أن نعيد الهيبة الضائعة لقيم الأخلاق ولاننسى الماضى !

ولم أقل لهذا الصديق : إن منفذنا الوحيد إلى النجاه أن نحتفظ – كما قلت – بسرعة الحركة والمبادأة وبالقدرة على أن نسير في طريقين في وقت واحد.

ولم أشأ أنا ذلك ، ولاشاءه كل الذين شاركوا فى ٢٣ يوليو .

ولكن القدر شاء ، وتاريخ شعبنا ، والمرحلة التى يمر بها اليوم .

هوامش الجزء الأول

(١) كان السيد عمر مكرم أول مصرى فى التاريخ الحديث ، نادى بحق الشعب فى الحرية وفى السيادة . وكان أول شهرته خلال الحملة الفرنسية على مصر . إذ كان من قواد حركة المقاومة الشعبية التى انتهت بجلاء الفرنسيين ، ثم قاد حركة المقاومة ضد طغيان المماليك والباشا العثمانى ، وكان محمد على فى ذلك الوقت ضابطاً لإحدى الفرق العثمانية فى مصر ، فانضم الى حركة المقاومة الشعبية ، ووثق صلته بالزعيم عمر مكرم ، فانخدع به ورشحه للولاية ، فبايعه الشعب والياً ، وكتب زعماؤه بذلك الى الخليفة العثمانى فى اسطنبول ، فأثر الخليفة هذه البيعة مكرها ، نزولا على إرادة الشعب وتم لمحمد على ما أراد ، وصار والياً على مصر . ثم تنكر للشعب، وخان عهده للزعماء ، ونُفى السيد عمر مكرم إلى دمياط ، ثم إلى طنطا، فظل منفياً حتى مات !

وصار عرش مصر وراثة لأسرة محمد على ، يتوارثونه أميراً عن أمير ، وكان فاروق المخلوع آخر هذه السلسلة ، فأبعد عن العرش فى ٢٦ يوليه سنة ١٩٥٢ ، ثم انتهت الملكية وأعلنت « جمهورية مصر » فى يونيه سنة ١٩٥٣ ، بعد قرن ونصف قرن من إعتلاء محمد على لعرش مصر .

(٢) كان أحمد عرابى ضابطاً فى الجيش المصرى ، وكان مصرياً صميماً ، فى حين كان أكثر ضباط الجيش من الترك والشركس والآرمن ، والأرناءوط ، ولم يكن مسموحا للضباط المصريين أن يتجاوزوا الترقية رتبة معينة ، مهما بلغوا من النشاط والكفاية ، وكانت مرافق البلاد كلها فى أيدى الأجانب ، وكان الخديو توفيق يقربهم ويحتظيهم ويجعل لهم

الأمتياز والسيادة على أهل البلاد . وكان نظام الحكم استبداديا والضرائب ثقيلة ومجحفة ، وخزانة الدولة خاوية ، والديون التى تورط فيها اسماعيل بحماقة تثقل كاهل الحكومة والأهالى وتجعل للدائنين الأجانب السلطة العليا ... وأبى أحمد عرابى هذا، ووراءه زملاؤه الضباط المصريون فى الجيش ، فأجمعوا أمرهم على خطة لمقاومة هذا الطغيان ، ولإصلاح نظام الحكم ، والاعتراف بحق الشعب فى السيادة .

واجتمع الجيش كله فى ميدان عابدين ، ليطلب إلى الخديو باسم الشعب ، إصلاح أداة الحكم ، وانشاء حكم نيابى ، والحد من سلطة الأجانب .

فاضطر توفيق إلى الإستجابة لمطالب الشعب ، وحقق له ما أراد، ثم راح يدبر أمره مع الانجليز فى الخفاء ، ليقضى على روح المقاومة فى الشعب وكانت العاقبة كما أراد ، فاحتلوا مصر ، واعتقلوا أحمد عرابى وزملاءه ونفوهم الى إحدى جزر المحيط الهندى . وكان هذا أول الإحتلال البريطانى الذى جثم بأثقاله على صدر الوطن اثنتين وسبعين سنة، حتى أكرههم المصريون فى سنة ١٩٥٤ على الجلاء .

(٣) فى هذه الفترة التى عاشتها مصر بين الثورتين ، فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، انتشرت الأفكار الحرة ، وبدأ الوعى القومى ينضج ، وكان لآراء السيد عبد الرحمن الكواكبى ، والسيد جمال الدين الأفغانى ، أثرها فى إيقاظ الوعى ، فآمن الشعب بحقه فى الاستقلال والحرية ، وبدأ يدبر أمره لتحقيق هذين المطلبين . وكان من زعماء هذه الفترة : محمد عبده ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وعبد العزيز

جاويش .

(٤) لما احتلت بريطانيا مصر فى سنة ١٨٨٢ زعمت أن احتلالها مؤقت ، وأنها ستجلو عن مصر حين تستقر أمورها الداخلية ، وظلت على هذا الزعم حتى نشبت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ ، فكشفت عن خبيئتها ففرضت على مصر الحماية البريطانية ، ولكى تحذر شعور المصريين ، زعمت أن هذه الحماية مؤقتة كذلك ، وأن ظروف الحرب هى التى اقتضتها...

فلما انتهت الحرب فى أواخر سنة ١٩١٨ أجمع المصريون على ضرورة إنهاء الحماية والإعتراف باستقلال مصر ، وذهب سعد زغلول ، وكيل الجمعية التشريعية ، إلى دار المعتمد البريطانى فى القاهرة ، مع على شعراوى وعبد العزيز فهمى ، ليطلبوا إليه باسم مصر ، أن ينقل إلى حكومته فى لندن رغبة المصريين فى إنهاء الحماية والإعتراف بالإستقلال ، فلم تطق بريطانيا صبرا على هذا المطلب ، واعتقلت سعد وأصحابه . ونفتهم إلى مالطة ، فكان هذا سببا لإشتعال ثورة سنة ١٩١٩ .

وتعتبر هذه الثورة مرحلة من المراحل الرئيسية فى تاريخ العلاقات بين مصر وبريطانيا .

٥ – كانت فلسطين – إلى الحرب العالمية الاولى – جزءا من أملاك الدولة العثمانية فلما نشبت تلك الحرب ، احتلتها بريطانيا باعتبارها من أملاك دولة معادية ، ولكى تكسب بريطانيا تأييد العرب لها فى تلك الحرب ، أعلنت أنها سترد اليهم بلادهم ، وتعترف باستقلالهم ، إذا أعانوها على

حرب الترك ، فكان هذا الوعد سببا لإنضمامهم الى صف بريطانيا فى تلك الحرب ، ولكن بريطانيا لم تكد تبلغ النصر ، حتى تنكرت للعرب ، واعتبرت بلادهم غنيمة حرب ، وفرضت سلطانها على فلسطين ، لتمهد لليهود أن ينشئوا لهم فيها وطنا قوميا ، فثار عرب فلسطين على هذا الوضع ولم يرتضوه ، ولكن بريطانيا لم تبال بثورات العرب المتعاقبة ، وأخذت تهيىء لليهود فى سائر بلاد العالم ، وسائل الهجرة إلى فلسطين والإستقرار بها ، لتكون لهم وطنا ، حتى اجتمع منهم نحو ثلث مليون ، يزاحمون أهل البلاد فى أرزاقهم ويزحزحونهم عن أرضهم ، فلما بلغ اليهود من الكثرة والقوة فى فلسطين هذا المبلغ ، إنسحبت منها بريطانيا وتركت العرب الوطنيين واليهود الطارئين يتقاتلون وجها لوجه ، هؤلاء يطمعون فى الاستيلاء على وطن لم يكن لهم فيه شبر من أرض ، وأولئك يدافعون عن وطنهم ومثوى آبائهم وأجدادهم ... ولم يكن لعرب فلسطين من القوة ما يهيىء لهم أسباب الغلبة ، فقررت الدول العربية أن تساعدهم على الظفر بحقهم وطرد العدو الدخيل من بلادهم ...

وبدأت فرق المتطوعين المصريين تأخذ مراكزها فى ميدان المقاومة ، بقيادة ضباط مصريين أحرار ، تطوعوا لبذل دمائهم فى سبيل الإبقاء على عروبة فلسطين ، وكان لهم بلاء يذكر بالإعجاب .

ثم دخل الجيش المصرى فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، وأوغل فى البلاد ، وفر اليهود أمامه مذعورين يتخلون عن معاقلهم معقلا بعد معقل وظهرت تباشير النصر القريب ...

فى أثناء ذلك ، وقلوب العرب فى شتى بلادهم تخفق بعنف وهم يترقبون الساعة التى تأتيهم فيها أنباء النصر الحاسم ، حدثت خيانة كبيرة ، كان فاروق ملك مصر المخلوع شريكا فيها ، فوقعت الدول العربية صك الهدنة وهى فى أوج انتصارها ...وأفلتت الثمرة الدانية من أيدى العرب !

٦ – فى أثناء هذه الهدنة التى فرضتها الخيانة على الجيش المصرى والجيوش العربية المنتصرة ، زودت بريطانيا ، وحلفاؤها ، اليهود بكل ما يحتاجون إليه من الأسلحة الثقيلة والخفيفة ، ليكونوا على أهبة كاملة حين تستأنف الحرب ، وكان فاروق وسماسرته خلال ذلك يستولون على أموال الخزانة ، بدعوى شراء الأسلحة للجيش المصرى المرابط فى ميدان القتال ، فيأخذونها لأنفسهم ، ويرسلون الى الجيش بثمنها أسلحة فاسدة ، تصيب أصحابها ولاتصيب العدو ، فكانوا بذلك عونا لليهود على النصر ، وسببا لهزيمة مصر ، وقد راح ضحية هذه الأسلحة جنود وضباط مصريون ، وراحت فلسطين نفسها ، وغلب عليها اليهود ، ولم تزل تحت أيدى اليهود حتى اليوم ، وأهلها مشردون لايجدون مأوى !

٧ – كان الضباط الأحرار قد شكلوا هيئتهم قبل ذلك وصاروا قوة ذات أثر فى كل فرقة من فرق الجيش ، استعدادا لتخليص البلاد من الطغيان ، ومن الفساد ، ومن الإحتلال البريطانى . وكان فاروق يضع على رأس الجيش جماعة من سماسرته وبطانته ، هم عناوين الجيش البارزة أمام الناس ، فمنهم الرؤساء الكبار ، والقادة العاملون ، وممثلو الجيش فى كل مناسبة

يراد أن يمثل فيها الجيش ، ومنهم هيئة الإدارة فى نادى الضباط، فلما حان موعد الإنتخاب لرياسة النادى فى سنة ١٩٥١ حرص الضباط الأحرار على إبعاد سماسرة فاروق وبطانته عن رياسة النادى ، إنتخبوا رئيسا منهم ، تحديا لإرادة فاروق ، فطاش صوابه والغى الانتخاب ، وكان ذلك أول مظهر صريح من مظاهر الخلاف بينه وبين الجيش .

٨ – من أعضاء مجلس قيادة الثورة .

٩ – من أعضاء مجلس قيادة الثورة .

١٠ – فدائى مصرى عظيم ، كان ضابطا فى الجيش المصرى ، ثم قاد قوات المتطوعين المصريين للدفاع عن فلسطين ، قبل أن تقرر الدول العربية الإشتراك فى المعركة ، وكان له بلاء مشهود فى كثير من المعارك ، وقضى نحبه شهيدا فى الميدان سنة ١٩٤٨ .

١١ – كان ذلك فى عام ١٩٥٣

١٢ – فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، كانت الجيوش الألمانية قد اجتازت حدود مصر الغربية، بقيادة روميل ، تتعقب الجيوش البريطانية المنهزمة ، حتى بلغت « العلمين » على مقربة من الإسكندرية ، وأدرك الانجليز يومئذ أن آخرتهم فى مصر قد حانت . وكان أشد ما يخشونه أن ينضم المصريون إلى أعداء بريطانيا ، انتقاما لأنفسهم من المظالم التى نالهم بها الإحتلال البريطانى خلال ستين سنة ، فكأنما خيل للإنجليز أنهم يستطيعون أن يتقوا هذا الشر ، لو كان على رأس الحكومة المصرية رجل يأمنون جانبه ويأمنون جانب الشعب معه، فذهب سفيرهم فى ٤ فبراير إلى قصر الملك

يطلب إليه إسناد رياسة الوزارة إلى مصطفى النحاس، وأنذروه إن لم يفعل ، أن يتحمل نتائج رفضه . ثم زحفت دبابات الإنجليز على قصر الملك ، فخضع فاروق وأسند رياسة الوزارة إلى مصطفى النحاس ، استجابة لرغبة بريطانيا .

١٣- حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ .

١٤- لم يكن قصد فؤاد - والإنجليز من ورائه - حين أعلن الدستور فى سنة ١٩٢٣ ودعا الشعب إلى انتخاب ممثليه فى البرلمان - إلا أن يصدع وحدة الشعب ، وشغله بالمنافسات الحزبية حول مقاعد البرلمان ومناصب الحكم عن أمانيه القومية ، وقد تحقق له وللإنجليز ما أرادوا من ذلك ، فتصدعت وحدة الشعب التى زلزلت كيان بريطانيا فى سنة ١٩١٩ ، وصار الشعب أحزاباً وشيعاً ، يكيد بعضهم لبعض ، ويتربص بعضهم ببعض ، وشغلهم الصراع على المناصب عن الكفاح لتحقيق الإستقلال ، ورأى فؤاد الفرصة سانحة فى سنة ١٩٣٠ ليسترد الدستور الذى أعلنه فى سنة ١٩٢٣ ، ليعود إلى نوع من حكم الفرد سموه بعنوان دستورى زائف ، فأعلن الغاء الدستور واستبدل به دستورا آخر لايحقق للشعب سلطة ولا سيادة ، وقهر البلاد بالعنف على الإستسلام والرضا ، وفرض عليها حكومة استبدادية ، تنتحل صفة دستورية زائفة ، بضع سنين ، ولكن الشعب لم يخضع ، ولم يتخل عن مثله العليا وأمانيه القومية التى يكافح فى سبيلها منذ سنين ذات عدد ، فما هو إلا أن أتيحت له الفرصة فى سنة ١٩٣٥ ، حتى ثار ثورة عارمة ، مطالباً بعودة دستور سنة ١٩٢٣

طأطأ فؤاد رأسه للشعب ، كما طأطأ أخوه توفيق من قبل للثورة العرابية ، ورد للشعب دستور سنة ١٩٢٣ ، ودعاه لإنتخاب ممثليه فى البرلمان على النظام الذى يرتضيه ...

ولكن كما كان خضوع توفيق فى سنة ١٨٨١ تمهيدا للإحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ ، كان خضوع فؤاد من بعد تمهيدا لمعاهدة سنة ١٩٣٦ التى تربط مصر إلى عجلة بريطانيا رباطا أبدياً لا فكاك منه ، فعلى أثر عودة الدستور ، تألفت الجبهة الوطنية التى تضم زعماء الأحزاب جميعا ما عدا الحزب الوطنى ، لتدخل مع بريطانيا فى مفاوضة جديدة لحل المسائل المعلقة بين البلدين ، ثم انتهت هذه المفاوضات إلى المعاهدة الأبدية ، التى مزقتها الثورة الشعبية بعد ذلك وأكرهت الإنجليز على الجلاء الذى لا رجعة بعده !

١٥ – شعار الثورة : الإتحاد ، والنظام ، والعمل . وقد حلل الاستاذ عباس محمود العقاد ، ووازن بينه وبين شعار كل من الثورة الفرنسية ، والثورة التركية . والثورة الروسية ، والثورة الصينية ، وأسهب فى تحليل كل شعار منها ومدى انطباقه على واقع كل ثورة من تلك الثورات . أنظر « فلسفة الثورة فى الميزان » للأستاذ عباس محمود العقاد .

١٦ – هاواى :الولاية الخمسون التى تتألف منها الولايات المتحدة الإمريكية ، وانضمت إلى الإتحاد عام ١٩٦٠ ، وتتكون جغرافيا من أرخبيل من الجزر يمتد فى موقع متوسط من المحيط الهادى (الباسفيك) الشمالى ، ويبلغ عدد جزر الأرخبيل ١٢٢ جزيرة منها ثمانى كبيرة أهمها جزيرة هاواى

١٧ – عبد الحكيم عامر عسكرى وسياسى مصرى ، النائب الأول لرئيس الجمهورية حتى عام ١٩٦٧ ، ولد ببلدة اسطال من نواحى مركز سمالوط (محافظة المنيا) فى ١١ ديسمبر ١٩١٩ ، والتحق بالكلية العسكرية وتخرج منها عام ١٩٣٨ ، والتحق بكلية أركان حرب بعد ذلك وتخرج منها فى ١٩٤٨ ، وهو برتبة ملازم أول ، اشترك فى تأليف اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار، وفى وضع خطة حركة ٢٣ يوليو ، وكان أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة منذ إعلان قيامه ، وعين قائدا عاماً للقوات المسلحة إثر إعلان جمهورية مصر فى ١٨ يونية ١٩٥٣ ومنح رتبة اللواء ، ثم منح رتبة الفريق فى يناير ١٩٥٨ ، وعين نائباً للقائد الأعلى للقوات المسلحة على أثر إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة فى ٢٣ فبراير ١٩٥٨ ومنح رتبة المشير ، وقد تولى رياسة اللجنة العليا لتصفية الإقطاع فى ١٨ مايو ١٩٦٦ ثم اللجنة العليا لتنظيم القطاع العام ، وفى خلال شهر مايو ١٩٦٧ قام بالإشراف على العملية التمهيدية لعودة الجيش المصرى إلى الحدود الشرقية التى تلاها سحب قوات الطوارىء الدولية واستقال فى ٩ يونيو ١٩٦٧ نتيجة لأحداث الحرب التى عرفت بهذا الاسم ، وتوفى فى سبتمبر ١٩٦٧ بمستشفى القوات المسلحة بالقاهرة .

١٨ – قانون الإصلاح الزراعي وتحديد الملكية : هو تنظيم اقتصادي من شأنه تحديد الملكية الزراعية للأفراد وتكوين طبقة من صغار الملاك الزراعيين ، تكون أكثر حرصاً على أرضها ورعاية لمرافقها وانتاجاً لمحصولها ، وما لهذا من أثر فى تذويب الفوارق الطبقية فى المجتمع ، وقد صدر القانون الأساسي للاصلاح الزراعي فى مصر عام ١٩٥٢

واشتمل على اربعين مادة ، أهـم مـانصت عـليه أنـــه لا يجـوز لأى شخص أن يمتلك مـــن الأرض الزراعية أكثر مـــن مـــائتى فـــدان (خفضت إلى مائة فدان فى عام ١٩٦١) وتعويض الحكومة لمن يستولى على أراضيهم على أساس عشرة أمثال القيمة الإيجارية للفدان ، وتوزيع الارض المستولى عليها على اساس خمسة فدادين للفرد، وتكون الأولوية لمن كان يزرع الأرض فعلا ، كما نظم القانون : العلاقة القانونية بين المالك والمستأجـر ، وتقدير الحد الأدنى لأجر العامل الزراعى ، وقيام جمعيات تعاونية تضم الملاك الجدد ممن لايملكون أكثر من خمسة أفدنة ، والحـصـول على السلف الزراعـيـة وتنظيم الدورات الزراعـيـة وبيع المحصول تعاونيا ، وما إلى ذلك من الخدمات التى تحقق الغرض من هذا التنظيم .

الجزء الثانى

- العمل الإيجابى .
- الحماسة لاتكفى .
- الرصاص يتكلم.
- صراخ وعويل فى الليل .
- ما أسهل أن يراق الدم .
- جزور في التاريخ .
- ياعزيز ياعزيز .
- الفولاذ ينهار .
- سوف يتبلور هذا المجتمع .
- أعصاب الناس وعقلولهم .
- أغضبنا الجميع .
- هذه حدودنا وذلك واجبنا .

ولكن ما الذى نريد أن نصنعه ؟

وما هو الطريق اليه ؟

الحق أنى فى معظم الأحيان كنت أعرف الإجابة عن السؤال الأول، وأخال أنى لم أكن وحدى المنفرد بهذه المعرفة ، وإنما كانت تلك المعرفة أملا انعقد عليه اجماع جيلنا كله .

أما الاجابة عن السؤال الثانى ، ما طريقنا إلى هذا الذى نريد ، فأنا أعترف أنها تغيرت فى خيالى كما لم يتغير شىء آخر ، وأكاد أعتقد أيضا أنها موضوع الخلاف الأكبر فى هذا الجيل !

وما من شك فى أننا جميعا نحلم بمصر المتحررة القوية . ذلك أمر ليس فيه خلاف بين مصرى ومصرى .

أما الطريق الى التحرر والقوة ... ، فتلك عقدة العقد فى حياتنا .

ولقد واجهت تلك العقدة قبل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وظللت أواجهها بعد ذلك كثيراً حتى اتضحت لى زوايا كثيرة كانت الظلال تسقط عليها فتخفيها ، وبدت أمام بصيرتى آفاق كان الظلام الذى ساد وطننا قرونا طويلة يلفها فلا آراها ! .

★ ★ ★

ولقد أحسست منذ انبثق الوعى فى وجدانى ، أن العمل الإيجابى وجب أن يكون طريقنا ... ولكن أى عمل ؟!

ولقد تبدو كلمة « العمل الايجابى » على الورق كافية لتحل المشكلة ، ولكنها فى الحياة ، وفى الظروف العسيرة التى عاشها جيلنا ، وفى المحن التى كانت تنشب أظفارها فى مقدرات وطننا ، لم تكن كافية !

★ ★ ★

وفى فترة من حياتى كانت الحماسة هى العمل الإيجابى فى تقديرى.

ثم تغير مثلى الأعلى فى العمل الإيجابى وأصبحت أرى أنه لايكفى أن تضج أعصابى وحدى بالحماسة ، وإنما على أن أنقل حماستى كى تضج بها أعصاب الآخرين .

وفى تلك الأيام قدت مظاهرات فى مدرسة النهضة ، وصرخت من أعماقى بطلب الاستقلال التام ، وصرخ ورائى كثيرون ، ولكن صراخنا ضاع هباء ويددته الرياح أصداء واهنة لا تحرك الجبال ولا تحطم الصخور.

★ ★ ★

ثم أصبح العمل الايجابى فى رأيى أن يجتمع كل زعماء مصر ليتحدوا على كلمة واحدة ، وطافت جموعنا الهاتفة الثائرة ببيوتهم واحداً واحداً تطلب إليهم باسم شباب مصر أن يجتمعوا على كلمة واحدة ؛ ولكن اتحادهم على كلمة واحدة كان فجيعة لإيمانى ؛ فان الكلمة الواحدة التى اجتمعوا عليها كانت معاهدة ١٩٣٦ .

★ ★ ★

وجاءت الحرب العالمية الثانية وما سبقها بقليل على شبابنا فألهبته وأشاعت النار فى خلجاته ، فبدأ إتجاهنا ، إتجاه جيل بأكمله ، يسير الى العنف .

وأعترف – ولعل النائب العام لايؤاخذنى بهذا الاعتراف أن الاغتيالات السياسية توهجت فى خيالى المشتعل فى تلك الفترة على أنها العمل الإيجابى الذى لا مفر من الإقدام عليه إذا كان يجب أن ننقذ مستقبل وطننا .

وفكرت فى اغتيال كثيرين وجدت أنهم العقبات التى تقف بين وطننا وبين مستقبله ، ورحت أفند جرائمهم ، وأضع نفسى موضع الحكم على أعمالهم ، وعلى الأضرار التى ألحقتها بهذا الوطن ثم أشفع ذلك كله بالحكم الذى يجب أن يصدر عليهم .

وفكرت فى اغتيال الملك السابق وبعض رجاله الذين كانوا يعبثون بمقدساتنا .

ولم أكن وحدى فى هذا التفكير .

ولما جلست مع غيرى انتقل بنا التفكير الى التدبير .

★ ★ ★

وما أكثر الخطط التى رسمتها فى تلك الأيام ،وما أكثر الليالى التى سهرتها ، أعد العدة للأعمال الإيجابية المنتظرة .

كانت حياتنا فى تلك الفترة كأنها قصة بوليسية مثيرة .

كانت لنا أسرار هائلة ، وكانت لنا رموز ، وكنا نتستر بالظلام ، وكنا نرص المسدسات بجوار القنابل ، وكانت طلقات الرصاص هى الأمل الذى نحلم به !

وقمنا بمحاولات كثيرة على هذا الإتجاه ، ومازلت أذكر حتى اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ونحن نندفع فى الطريق إلى نهايته ...

★ ★ ★

والحق أننى لم أكن فى أعماقى مستريحا الى تصور العنف على أنه العمل الايجابى الذى يتعين علينا أن ننقذ به مستقبل وطننا .

كانت فى نفسى حيرة ، تمتزج فيها عوامل متشابكة، عوامل من

الوطنية ومن الدين ، ومن الرحمة ومن القسوة ، ومن الإيمان ومن الشك ، ومن العلم ومن الجهل .

ورويداً رويداً وجدت فكرة الاغتيالات السياسية التى توهجت فى خيالى ، تخبو جذوتها وتفقد قيمتها فى قلبى كتحقيق للعمل الإيجابى المنتظر.

وأذكر ليلة حاسمة فى مجرى أفكارى وأحلامى فى هذا الاتجاه ...

كنا قد أعددنا العدة للعمل .

واخترنا واحداً قلنا انه يجب أن يزول من الطريق .

ودرسنا ظروف حياة هذ الواحد ووضعنا الخطة بالتفاصيل وكانت الخطة أن نطلق عليه الرصاص وهو عائد الى بيته فى الليل .

ورتبنا فرقة الهجوم التى تتولى إطلاق النار ، ورتبنا فرقة الحراسة التى تحمى فرقة الهجوم ، ورتبنا فرقة تنظيم خطة الإفلات إلى النجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح .

وجاءت الليلة الموعودة ، وخرجت بنفسى مع جماعات التنفيذ .

وسار كل شيء طبقا لما تصورناه .

كان المسرح خاليا كما توقعنا ، وكمنت الفرق فى أماكنها التى

حددت لها ، وأقبل الواحد الذى كان يجب أن يزول ، وانطلق نحوه الرصاص .

وانسحبت فرقة التنفيذ ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة ، وبدأت عملية الإفلات الى النجاة ، وأدرت محرك سيارتى وانطلقت أغادر المسرح الذى شهد عملنا الإيجابى الذى رتبناه .

وفجأة دوت فى سمعى أصوات صراخ وعويل ، وولولة امرأة ، ورعب طفل ، ثم استغاثة متصلة محمومه .

وكنت غارقا فى مجموعة من الانفعالات الثائرة ، والسيارة تندفع بى مسرعة

ثم أدركت شيئا عجيباً ...

كانت الأصوات ما زالت تمزق سمعى ...

الصراخ ، والعويل ، والولولة ، والاستغاثة المحمومة لقد كنت بعدت عن المسرح بأكثر مما يمكن أن يسرى الصوت ، ومع ذلك بدا ذلك كله كأنه يلاحقنى ويطاردنى .

ووصلت إلى بيتى ، واستلقيت على فراشى وفى عقلى حمى، وفى قلبى وضميرى غليان متصل .

وكانت أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة مازالت تطرق سمعي .

ولم أنم طول الليل ...

★ ★ ★

بقيت مستلقيا على فراشي في الظلام ، أشعل سيجارة وراء سيجارة ، وأسرح مع الخواطر الثائرة ، ثم تتبدد كل خواطري على الأصوات التي تلاحقني ...

أكنت على حق ؟

وأقول لنفسي في يقين :

– دوافعي كانت من أجل وطني !

أكانت تلك الوسيلة هي التي لا مفر منها ؟

وأقول لنفسي في شك :

– ماذا كان في استطاعتنا أن نفعل ؟

أيمكن حقا أن يتغير مستقبل بلدنا إذا خلصناه من هذا الواحد أو من واحد غيره ، أم المسألة أعمق من هذا ؟

وأقول لنفسى فى حيرة :

– أكاد أحس أن المسألة أعمق .

إننا نحلم بمجد أمة ، فما هو الأهم : أيمضى من يجب أن يمضى ، أم يجىء من يجب أن يجىء ؟

وأقول لنفسى واشعاعات من النور تتسرب بين الخواطر المزدحمة

– بل المهم أن يجىء من يجب أن يجىء ... إننا نحلم بمجد أمة ، ويجب أن يبنى هذا المجد !

وأقول لنفسى ومازلت أتقلب فى فراشى فى الغرفة التى ملأها الدخان وتكاثفت فيها الانفعالات :

– وإذن ؟

وأسمع هاتفا يرد على :

– وإذن ماذا ؟

وأقول لنفسى فى يقين هذه المرة :

– اذن يجب أن يتغير طريقنا ... ليس ذلك هو العمل الإيجابى الذى يجب أن نتجه إليه ... المسألة أعمق جذورا وأكثر خطورة وأبعد أغواراً .

وأحس براحة نفسية صافية ، ولكن الصفاء ما يلبث أن تمزقه هو الآخر أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة ، تلك التى مازالت أصداؤها ترن فى أعماقى .

ووجدت نفسى أقول فجأة :

ليته لايموت !

وكان عجيبا أن يطلع على الفجر وأنا أتمنى الحياة للواحد الذى تمنيت له الموت فى المساء !

وهرعت فى لهفة إلى احدى صحف الصباح .... وأسعدنى أن الرجل الذى دبرت اغتياله ... قد كتبت له النجاة !

★ ★ ★

ولكن تلك لم تكن المشكلة الأساسية .

وإنما المشكلة الأساسية ... هى العثور على العمل الإيجابى ومنذ ذلك الوقت بدأ تفكيرنا الحقيقى فى شىء أعمق جذوراً وأكثر خطورة وأبعد أغواراً .

وبدأنا نرسم الخطوط الأولى للصورة التى تحققت مساء ٢٣ يوليو ، ثورة منبعثة من قلب الشعب ، حاملة لأمانيه ، مكملة لنفس الخطوات التى

خطاها من قبل على طريق مستقبله .

ولقد بدأت هذا الحديث بسؤالين :

أولهما : ما الذى نريد أن نصنعه ؟

والثانى : وما طريقنا اليه ؟

وقلت أن الاجابة عن السؤال الأول أمل انعقد عليه الإجماع ، أما السؤال الثانى – طريقنا إلى الذى نريد أن نصنعه – فهو الذى أطلت فيه الكلام حتى وصلت الى ٢٣ يوليو !

★ ★ ★

ولكن أكان الذى حدث يوم ٢٣ يوليو هو كل ما نريد أن نصنعه !

المؤكد أن الجواب بالنفى ، فإن تلك لم تكن إلا الخطوة الأولى على الطريق :

والحق أن فرحة النجاح فى ٢٣ يوليو لم تخدعنى ، ولم تصور لى أن الآمال قد تحققت ، وأن الربيع قد جاء .. بل لعل العكس هو الصحيح .

لقد كانت كل دقيقة تحمل إلى انتصارا جديدا للثورة ، تحمل إلى فى الوقت نفس عبئا ضخما ثقيلا تلقيه بلا مبالاة فوق كتفى .

★ ★ ★

ولقد قلت فى الجزء الأول من هذا الحديث ، انى كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة ، وأنها لا تنتظر إلا طليعة تقتحم أمامها السور فتندفع الأمة صفوفا متراصة منتظمة زاحفة .

وقلت إننى تصورت دورنا على أنه دور الطليعة ، وكنت أتصور أنه لن يستغرق أكثر من بضع دقائق يلحق بنا بعدها زحف الصفوف المتراصة المنتظمة .

ورسمت أيضا فى ذلك الجزء صورة للخلافات والفوضى والأحقاد والشهوات التى انطلقت من عقالها فى تلك اللحظات ، كل منها يحاول بأنانيته أن يستغل الثورة لتحقيق أهداف بعينها .

ولقد قلت وسأظل أقول أن تلك كانت أقسى مفاجأة فى حياتى ! ولكنى أشهد أنه كان يجب أن أتوقع أن يحدث الذى حدث ...

لم يكن يمكن أن نضغط على زركهربائى فتتحقق أحلامنا .. ولم يكن يمكن فى غمضة عين أن تزول رواسب قرون ومخلفات أجيال .

★ ★ ★

ولقد كان من السهل وقتها – وما زال سهلاً حتى الآن– أن نريق دماء عشرة أو عشرين أو ثلاثين فنضع الرعب والخوف فى كثير من

النفوس المترددة ونرغمها على أن تبتلع شهواتها وأحقادها وأهواءها .

ولكن أى نتيجة كان يمكن أن يؤدى إليها مثل هذا العمل ؟

ولقد كنت أرى أن الوسيلة لمواجهة أى مشكلة من المشاكل هو ردها الى أصلها ومحاولة تتبع الينبوع الذى بدأت منه .

وكان من الظلم أن يفرض حكم الدم علينا دون أن ننظر إلى الظروف التاريخية التى مر بها شعبنا والتى تركت فى نفوسنا جميعا تلك الآثار وصنعت منا ما نحن عليه الآن .

ولقد قلت مرة انى لا أريد أن أدعى لنفسى مقعد أستاذ التاريخ ، فذلك آخر مايجرى إليه خيالى ، وقلت أنى سأحاول محاولات تلميذ مبتدىء فى التاريخ .

★ ★ ★

لقد شاء لنا القدر أن نكون على مفرق الطرق من الدنيا (١) .وكثيرا ما كنا معبراً للغزاة ومطمعا للمغامرين . ومرت بنا ظروف كثيرة يستحيل علينا أن نعلل العوامل الكامنة فى نفوس شعبنا إلا إذا وضعناها موضع الاعتبار .وفى رأيى أنه لا يمكن إغفال تاريخ مصر الفرعونى ، ثم تفاعل الروح اليونانى مع روحنا ، ثم غزو الرومان ، والفتح الإسلامى وموجات الهجرة العربية التى أعقبته .

وفى رأيى أيضا أنه يجب التوقف طويلا عند الظروف التى مرت علينا فى العصور الوسطى ، فإن تلك الظروف هىَ التى وصلت بنا الى ما نحن عليه الآن (٢)

★ ★ ★

وإذا كانت الحروب الصليبية بداية فجر النهضة فى أوربا (٣) فقد كانت بداية عهود الظلام على وطننا .

فلقد تحمل شعبنا وحده معظم أعباء الحروب الصليبية ، وخرج بعدها فقيراً ، معدما ، منهوك القوى .

وفى نفس الوقت الذى هدته المعركة فيه ، شاءت له الظروف أن يعانى الذل تحت سنابك خيول الطغاة القادمين من المغول والشركس(٤) ..

كانوا يجيئون الى مصر عبيدا فيفتكون بأمرائهم ويصبحون هم الأمراء !

وكانوا يساقون اليها مماليك فلا تمضى عليهم فترة فى البلد الطيب الوديع حتى يصبحوا ملوكا !

وأصبح الطغيان والظلم والخراب ، طابع الحكم فى مصر على عهدهم الذى عاشت مصر فى مجاهله قرونا طويلة .

تلك الفترة تحول فيها وطننا إلى غابة تحكمها وحوش ضارية كان

المماليك يعتبرونها غنيمة سائغة ، وكان الصراع الرهيب بينهم هو على نصيب كل منهم فى الغنيمة .

كانت أرواحنا ، وثرواتنا ، وأراضينا ، هى الغنيمة !

★ ★ ★

وأحيانا حينما أعود إلى تقليب صفحات من تاريخنا ، أحس بالأسى يمزق نفسى إزاء تلك الفترة التى تكون فيها اقطاع طاغ ، لم يجعل له من عمل إلا مص دماء الحياة من عروقنا ، وأكثر من هذا ، سحب بقايا الإحساس بالقوة والكرامة من هذه العروق ، وترك فى أعماق نفوسنا تأثيراً يتعين علينا أن نكافح طويلا لكى نتغلب عليه ...

★ ★ ★

والواقع أن تصورى لهذا التأثير يعطينى فى كثير من الأحيان تفسيراً لبعض المظاهر فى حياتنا السياسية .

أحياناً مثلا يخيل إلى أن كثيرين يقفون من الثورة موقف المتفرج الذى لايعنيه من الأمر إلا مجرد انتظار نتيجة معركة يتصارع فيها طرفان لاتربطه بأيهما علاقة .

وأحيانا أثور على هذا الوضع ، وأقول لنفسى ولبعض من زملائى لماذا لايقدمون ؟ ولماذا لايخرجون من المكامن التى وضعوا فيها أنفسهم ، ليتكلموا ويتحركوا ؟

ولا أجد تفسيراً لهذا إلا رواسب حكم المماليك :

كان الأمراء يتصارعون ، ويتطاحن فرسانهم فى الشوارع ويهرع الناس إلى بيوتهم يغلقونها عليهم بعيدين عن هذا الصراع الذى لا دخل لهم فيه (٥)

★ ★ ★

وأحيانا يخيل إلى أننا نلجأ إلى خيالنا نكلفه أن يحقق لنا فى اطار الوهم ما نريده ، ونستمتع نحن بهذا الوهم ونقعد به عن محاولة تحقيقه .

ولم يتخلص كثيرون منا من هذا الشعور بعد ، ولم يهضموا أن البلد بلدهم وأنهم سادته وأصحاب الرأى والأمر فيه .

ولقد ظللت مرة أحاول أن أفهم عبارة كثيراً ما هتفت بها طفلا صغيراً حينما كنت أرى الطائرات فى السماء .

لقد كنت أصيح :

« يا ربنا ياعزيز .. داهيه تاخد الانجليز » .

ولقد اكتشفت فيما بعد أننا ورثنا هذه العبارة عن أجدادنا على عهد المماليك ، ولم تكن يومها منصبة على الانجليز ، وإنما حورناها نحن أو حورتها الرواسب الكامنة فينا والتى لم تتغير وإن تغير اسم الظالم ، فقد كان أجدادنا يقولون :

« يارب يامتجلى ... أهلك العثمانلى ! »

وبنفس الروح التى لم تتغير جرى المعنى على لساننا ، وأن تغير اسم « الإنجليز » باسم العثمانيين ، طبقا للتغيرات السياسية التى توالت على مصر بين العهدين ! .

★ ★ ★

ثم ماذا حدث لنا بعد عهد المماليك ؟

جاءت الحملة الفرنسية ، وتحطم الستار الحديدى الذى فرضه المغول علينا ، وتدفقت علينا أفكار جديدة ، وتفتحت لنا آفاق لم يكن لنا بها عهد .

وورثت أسرة محمد على كل ظروف المماليك ، وإن حاولت أن تضع عليها من الملابس مايناسب زى القرن التاسع عشر.

وبدأ اتصالنا بأوربا والعالم كله من جديد .

بدأت اليقظة الحديثة !

★ ★ ★

وبدأت اليقظة بأزمة جديدة ....

لقد كنا فى رأيى أشبه بمريض قضى زمناً فى غرفة مغلقة، واشتدت الحرارة داخل الغرفة المغلقة حتى كادت أنفاس المريض تختنق ...

وفجأة هبت عاصفة حطمت النوافذ والأبواب ، وتدافعت تيارات الهواء الباردة تلسع جسد المريض الذى مازال يتصبب عرقا .

لقد كان فى حاجة إلى نسمة هواء .. فانطلق عليه اعصارات ، وأنشبت الحمى أظفارها فى الجسد المنهوك القوى .

هذا هو ماحدث لمجتمعنا تماما وكانت تجربة محفوفة بالمخاطر !

★ ★ ★

كان المجتمع الأوربى قد سار فى تطوره بنظام ، واجتاز الجسر بين عصر النهضة من أعقاب القرون الوسطى إلى القرن التاسع عشر خطوة خطوة، وتلاحقت مراحل التطور واحدة إثر أخرى .

أما نحن فقد كان كل شيء مفاجئا لنا .

كنا نعيش داخل ستار من الفولاذ فانهار فجأة .

كنا قد انقطعنا عن العالم واعتزلنا أحواله ، خصوصاً بعد تحول التجارة مع الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح (٦) فإذا نحن نصبح مطمع دول أوربا ومعبراً إلى مستعمراتها فى الشرق والجنوب .

وانطلقت علينا تيارات من الأفكار والآراء لم تكن المرحلة التى وصلنا إليها فى تطورنا تؤهلنا لقبولها.

كانت أرواحنا مازالت تعيش فى آثار القرن الثالث عشر، وإن سرت فى نواحيها المختلفة مظاهر القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين .

وكانت عقولنا تحاول أن تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التى تخلفنا عنها خمسة قرون أو يزيد ، وكان الشوط ماضياً والسباق مروعاً مخيفاً .

★ ★ ★

وما من شك في أن هذا الحال هو المسئول عن عدم وجود رأى عام قوي متحد فى بلادنا ، فإن الفارق بين الفرد والفرد كبير والفارق بين الجيل والجيل شاسع .

ولقد جاء على وقت كنت أشكو فيه من أن الناس لايعرفون ماذا يريدون ، وأن إجماعهم لاينعقد على طريق واحد يسيرون فيه ، ثم أدركت بعدها أننى أطلب المستحيل ، وأننى أسقط من حسابى ظروف مجتمعنا ...

إننا نعيش فى مجتمع لم يتبلور بعد ، وما زال يفور ويتحرك ولم يهدأ حتى الأن أو يتخذ وضعه المستقر ليواصل تطوره التدريجى بعد مع باقى الشعوب التى سبقتنا على الطريق .

★ ★ ★

وأنا أعتقد دون أن أكون فى ذلك متملقاً لعواطف الناس ، أن شعبنا صنع معجزة ، ولقد كان يمكن أن يضيع أى مجتمع تعرض لهذه الظروف التى تعرض لها مجتمعنا، وكان يمكن أن تجرفه هذه التيارات التى تدفقت علينا ... ولكننا صمدنا للزلزال العنيف .

صحيح أننا كدنا نفقد توازننا فى بعض الظروف ، ولكنا بصفة عامة، لم نقع على الأرض .

★ ★ ★

وأنا أنظر أحيانا إلى أسرة مصرية عادية من الآف الأسر التى تعيش فى العاصمة .

الأب مثلاً فلاح معمم من صميم الريف .

والأم سيدة منحدرة من أصل تركى .

وأبناء الأسرة فى مدارس على النظام الإنجليزى .

وفتياتها فى مدارس على النظام الفرنسى .

كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن العشرين .. أنظر إلى هذا وأحس فى أعماقى بفهم للحيرة التى نقاسيها وللتخبط الذى يفترسنا ، ثم أقول لنفسى :

– سوف يتبلور هذا المجتمع ، وسوف يتماسك ، وسوف يكون وحدة قوية متجانسة ، إنما ينبغى أن نشد أعصابنا ونتحمل فترة الانتقال .

★ ★ ★

تلك إذن هى الأصول التى انحدرت منها أحوالنا اليوم ، وهذه هى الينابيع التى تجرى منها أزمتنا ، فإذا أضيف إلى هذه الجذور الاجتماعية ، ظروف من أجلها طردنا فاروق ، ومن أجلها نريد تحرير بلادنا من أى جندى غريب – وإذا أضيف هذا كله بدا لنا الأفق الواسع الذى نعمل فيه ، والذى تهب عليه الرياح من كل ناحية ، وتزمجر في جنباته العواصف الهوجاء ، وتتوهج فيه البروق وتهدر الرعود ،والذى قلت أنه من الظلم أن يفرض علينا فيه حكم الدم ، مع مراعاة كل هذه الظروف والملابسات .

★ ★ ★

وإذن ما هو الطريق ؟

وما هو دورنا على الطريق ؟

أما الطريق فهو الحرية السياسية والاقتصادية .

وأما دورنا فيه فدور الحراس فقط ، لايزيد ولا ينقص ...

الحراس لمدة معينة بالذات ، موقوته بأجل .

وما أشبه شعبنا الآن بقافلة كان يجب أن تلزم طريقا معيناً ، وطال عليها الطريق ، وقابلتها المصاعب ، وانبرى لها اللصوص وقطاع الطرق ، وضللها السراب ، فتبعثرت القافلة ، كل جماعة منها شردت فى ناحية ، وكل فرد مضى فى إتجاه ...

وما أشبه مهمتنا فى هذا الوضع بدور الذى يمضى فيجمع الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ، ثم يتركهم يواصلون السير .

هذا هو دورنا ولا أتصور لنا دورا سواه .

ولو خطر لى أننا نستطيع أن نحل كل مشاكل وطننا لكنت واهما ، وأنا لا أحب أن أتعلق بالأوهام .

إننا لانملك القدرة على ذلك ، ولا نملك الخبرة لنقوم به إنما كل عملنا أن نحدد معالم الطريق كما قلت ، وأن نجري وراء الشاردين فنردهم

إلى حيث ينبغى أن يبدأوا المسير ، وأن نلحق بالسائرين وراء السراب فنقنعهم بعبث الوهم الذى يجرون وراءه .

★ ★ ★

ولقد كنت مدركا منذ البداية أنها لن تكون مهمة سهلة وكنت أعلم مقدما أنها ستكلفنا الكثير من شعبيتنا .

لقد كان يجب أن نتكلم بصراحة ، وأن نخاطب عقول الناس وكان الذين سبقونا قد تعودوا أن يعطوا الوهم ، وأن يقولوا للناس مايريد الناس أن يسمعوه !

★ ★ ★

وما أسهل الحديث الي غرائز الناس ، وما أصعب الحديث الي عقولهم !

وغرائزنا جميعا واحدة ، أما عقولنا فموضع الخلاف والتفاوت ، وكان ساسة مصر في الماضى من الذكاء بحيث أدركوا هذه الحقيقة فاتجهوا إلى الغريزة يخاطبونها ، أما العقل فتركوه هائما على وجهه فى الصحراء .

وكنا نستطيع أن نفعل نفس الشىء .

كنا نستطيع أن نملأ أعصاب الناس بالكلمات الكبيرة التى لا تخرج عن حد الوهم والخيال ، أو تدفعهم وراء أعمال غير منظمة لم تعد لها العدة أو تتخذ لها أهبه ، أو كنا نستطيع أن نترك أصواتهم تبح من كثرة هتافهم :

« ياربنا ياعزيز ... داهية تاخد الانجليز » !

تماما كما كان أجدادنا تبح أصواتهم أيام المماليك من كثرة هتافهم :

« يارب يامتجلى ... أهلك العثمانلى » !

وبعدها لاشيء !

لكن .. أكانت تلك مهمتنا التى شاءها لنا القدر ؟

وما الذى كنا نستطيع أن نحققه فعلاً إذا سرنا فى هذا السبيل ؟

ولقد قلت فى الجزء الأول من هذا الحديث أن نجاح الثورة يتوقف على ادراكها لحقيقة الظروف التى تواجهها ، وقدرتها على الحركة السريعة .

وأضيف الآن إلى ذلك أنها يجب أن تتحرر من آثار الألفاظ البراقة ، وأن تقدم على ما تتصور أنه واجبها مهما كان الثمن من شعبيتها ومن الهتاف بحياتها والتصفيق لها !

والإ فإننا نكون قد تخلينا عن أمانة الثورة وعن واجباتها .

★ ★ ★

وكثيرا ما يجيئنى من يقول لى :

- لقد أغضبتم كل الناس !

وعلى مثل هذه الملاحظة أرد دائماً :

- ليس غضب الناس هو العامل المؤثر فى الموقف ، وإنما السؤال : هل كان الذين أغضبوهم يعملون لصالح الوطن أو لغيره ؟ أنا أدرك أننا أغضبنا كبار الملاك ...

لكن ، هل كان يمكن ألا نغضبهم وتترك تربة وطننا ، وفينا من يملك منها عشرات الألوف من الأفدنة وفينا من لايملك قطعة يدفن فيها بعد أن يموت ؟!

وأنا أدرك أننا أغضبنا الساسة القدماء ...

ولكن ، هل كان يمكن ألا نغضبهم وتترك تربة وطننا فريسة لشهواتهم وفسادهم وصراعهم على مغانم الحكم ؟!

وأنا أدرك أننا أغضبنا عدداً كبيراً من الموظفين ...

ولكن ، هل كان يمكن أن نعطى أكثر من نصف ميزانية الدولة مرتبات للموظفين ولانستطيع - كما صنعنا بالفعل - أن نخصص أربعين مليونا من الجنيهات للمشروعات الإنتاجية ؟

ماذا علينا لو كنا فتحنا – كما فعل غيرنا – خزائن الدولة ووزعنا ما فيها على الموظفين وليكن بعد ذلك الطوفان .. ؟ وليكن – أيضا – أن يجيء العام القادم فلا تستطيع الحكومة أن تدفع مرتبات موظفيها أصلاً وأساساً ؟

وما كان أسهل أن نرضى هؤلاء جميعا وغيرهم ... ولكن ، ماهو الثمن الذى كان وطننا سيدفعه من آماله ومستقبله فى مقابل هذا الرضا ؟

★ ★ ★

ذلك دورنا الذى حدده لنا تاريخ وطننا ، ولا مفر أمامنا من أن نقوم به ، مهما كان الثمن الذى قد ندفعه .

ولم نخطيء أبدا فى فهم هذا الدور ، ولا فى إدراك طبيعة الواجبات التى يلقيها علينا .

تلك خطوات لإصلاح آثار الماضى ورواسبه ، مضينا فيها وتحملنا من أجلها كل شيء .

فلما جاء الكلام عن المستقبل قلنا إننا لانملك هذا وحدنا .

فمن أجل ضمان الحياة السياسية فى المستقبل ، ذهبنا إلى عدد من قادة الرأي من مختلف الطبقات والعقائد وقلنا لهم :

ضعوا للبلد دستوراً يصون مقدساته .

وكانت لجنة وضع الدستور .

ومن أجل ضمان الحياة الاقتصادية فى المستقبل ، ذهبنا إلى أكبر الأساتذة فى مختلف نواحى الخبرة وقلنا لهم :

نظموا للبلد رخاءه واضمنوا لقمة العيش لكل فرد فيه .

وكان مجلس الإنتاج .

تلك حدودنا لم نتعدها :

إزالة الصخور والعقبات من الطريق ، مهما كان الثمن ، واجبنا . والعمل للمستقبل من كل نواحيه مفتوح لكل ذوى الرأى والخبرة، فرض لازم عليهم ، وليس لنا أن نستأثر به دونهم ، بل إن مهمتنا تقتضى أن نسعى لجمعهم من أجل مستقبل مصر ... مصر القوية المتحررة !

هوامش الجزء الثانى

١- موقع مصر : تحتل مصر جغرافياً الطرف الشمالى الشرقى من قارة افريقيا ، ويشمل شبة جزيرة سيناء الواقعة فى قارة آسيا ، ومن ثم تعتبر مصر دولة افريقية آسيوية ، يحدها شمالا البحر الابيض المتوسط ، وتمتد حدودها الشرقية من ميناء طابا على خليج العقبة إلى ميناء رفح على البحر الأبيض ، وتمتد حدودها الغربية من خليج السلوم على البحر الأبيض إلى نقطة تلتقى فيها حدودها الجنوبية مع السودان قرب واحة العوينات غرباً : إلى ساحل البحر الأحمر .

٢- المقصود هنا بالعصور الوسطى : القرن العاشر الميلادى وما بعده (القرن الرابع الهجرى) ، حين بدأ الوهن يدب فى جسم الدولة الإسلامية وتنازعتها مطامع الأمراء . وفي هذا التاريخ نفسه بدأت الغزوات الصليبية.

٣- بدأت الحروب الصليبية أول ما بدأت فى اسبانيا ، حين انفرط عقد الدولة الأموية فى الأندلس وتنازعها « ملوك الطوائف» من حكام الولايات وأمراء المدن فرآها الأسبان فرصة سانحة للقضاء على الإسلام فى تلك البلاد ، واستثاروا حماسة المسيحيين من أبناء جلدتهم فى فرنسا ومن ذوي دينهم فى ايطاليا وأواسط أوربا لحرب المسلمين حتى يجلوا عن شبه جزيرة الأندلس ، فنشأت المعارك الصليبية الأولى فى تلك البقاع ، ثم استمرت ...

ثم انتقل صدي هذه الدعوة الى فرنسا وإيطاليا وأواسط أوربا ، فاذا دعوة

أخرى مماثلة تتردد هناك بقصد إجلاء المسلمين عن بيت المقدس وبلاد الشام ، فينتظم تحت ألويتها الآلاف من ذوى العصبية ويتخذون سبيلهم فى البر والبحر إلي الأرض المقدسة ، ومن ثمة كانت تسميتها بالحروب الصليبية ...

علي أن هذه الحروب التى بدأت في القرن العاشر استجابة لدعوة صليبية، لم تلبث أن انقلبت الى حرب توسع واستعمار ، أو إلى مغامرات فرسان يطلبون المجد أو يطمعون فى الغنيمة ، فانتظم تحت رايتها الأفاقون والسفاكون والطامحون إلى الإمارة والمولعون بالمغامرة وتجار الرقيق وأصحاب الشهوات ، إلي طوائف من ذوي الغفلة الدينية الذين يستجيبون لكل دعوة باسم الدين طمعا فى المثوبة دون بحث أو تحقيق . وكان بين المغامرين فى هذه الحروب ملوك وأمراء وفرسان لا يؤمنون بالله خالق ولا يتورعون عن منكر ولا يعرفون فرق ما بين دين ودين ، وانما هي معارك يخوضونها ليكسبوا مالاً ، أو ليكسبوا مجداً وسمعة ، أو ليصيروا حكاما وأمراء حيث لا مطمع لهم في الحكم والإمارة ببلادهم ، أو ليتسعوا فيما يملكون فيصير لهم عرش هنا وعرش هنالك ؟

وقد استطاع بعض أولئك المغامرين أن يحققوا بعض آمالهم ، فأنشئت على إمتداد السواحل الشامية أو في قلب البادية بعض إمارات « صليبية » يجلس على عروشها بعض أولئك المغامرين لتنشأ بين بعضهم فيما بعد حروب ومنافسات دموية لا يذكر فيها اسم الله ولا اسم الصليب ...

وقد وقع بيت المقدس فى يد بعض أولئك المحاربين الصليبين وظلت تحت حكمهم مئة عام ، ثم استردها المسلمون على يد صلاح الدين ...

على أن وقوع بيت المقدس فى أيديهم – وكانت هي الهدف والغاية – لم يحملهم على إنهاء الحروب الصليبية ، فظلت حملاتهم متوالية على سواحل مصر وتونس وغير مصر وتونس من بلاد المسلمين ...

وكان على مصر أكبر العبء فى رد هؤلاء الغزاة المعتدين ، وبكفاحها ارتد الصليبيون مدحورين فلم تثبت لهم قدم فى بلد من بلادنا ، بعد حروب دامت ثلاثة قرون ...

وقد كان اتصال أوربا بالشرق فى الحروب الصليبية ، سببا من أسباب النهضة الأوربية التي استكملت مظاهرها في القرن الخامس عشر الميلادى ، فقد رأى الأوربيون في بلادنا من صور الحضارة ما فتق أذهانهم ، وكشف الغشاوة عن عيونهم وفتح لهم آفاقاً من المعرفة ظهرت آثارها بينهم بعد قليل ، فكانت هذه الحروب خيراً لهم وشراً علينا .

٤- ولم تكد مصر تفرغ من هم الحروب الصليبية حتى كان المغول الزاحفون من وراء سد الصين قد بلغوا فى زحفهم حدود بلادنا ، بعد أن دمروا في طريقهم إلينا بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ووطئت خيلهم بلاد الشام ، ولم يبق إلا أن يأكلونا كما أكلوا كل الأمم التى اعترضت سبيلهم منذ خرجوا من مجاهلهم يجتاحون البلاد بالويل والدمار ...

وقد أراد الله أن ينقذ الحضارة ويرد السلام إلي الأرض بأيدى المصريين ، فانتصرنا علي المغول فى موقعة « عين جالوت » من أرض فلسطين فلم

تقم لهم بعد ذلك قائمة ، ولكن هذا الانتصار كان فاتحة لهم جديد ، فقد مكن للمماليك الشركس – وكان منهم قادة الجيش الذى انتصر على المغول – فصار اليهم عرش مصر يتوارثونه مملوكا عن مملوك ، ثلاثة قرون ، حتى غلبهم الغازى العثمانى على ما كان في أيديهم من السلطة فى القرن العاشر الهجرى – السادس عشر الميلادى ، وفقدت مصر استقلالها وحريتها .

٥ – لنتصور الحياة الاجتماعية فى مصر على عهد المماليك ، تقرأ القصص الآتية

★ ابنة المملوك : لمحمد فريد أبى حديد .

★ الأمير حيدر : لابراهيم جلال

★ على باب زويلة : لمحمد سعيد العريان .

★ المملوك الشارد : لجورجى زيدان .

٦ – كانت مصر الي القرن الخامس عشر الميلادي هى طريق المواصلات الوحيد بين أوربا والشرق ، فكانت المتاجر الأوربية تصل إلى موانينا فى البحر المتوسط ، ثم تعبر البلاد برا إلى موانى البحر الأحمر ، ثم تستأنف رحلتها البحرية إلى الهند والشرق الأقصي ، ولم يكن ثمة طريق غير هذا بين أوربا والشرق ، اذ كانت السفن البحرية لم تعرف بعد طريقا تسلكه في المحيط الأطلسي إلى جنوب افريقيا لتنفذ منه إلى المحيط الهندى ، ثم أكتشف البرتغال طريق رأس الرجاء الصالح في القرن الخامس عشر ، فتحولت إليه تجارة أوربا ، وبدأ عهد العزلة فى مصر ..

الجزء الثالث

٣

- بعد غيبة ثلاثة شهور.
- الزمان والمكان .
- القدر لايهزل .
- دوائر ثلاث .
- دور يبحث عن بطله .
- فلسطين ليست بلدا غريبا .
- لقاء مع عرب فلسطين .
- أغلى أسرار الطيران .
- أفكار في ميدان القتال .
- الأرض والنجوم .
- نظرة إلى مذكرات وايزمان
- الكفاح الواحد وعناصره .
- القوة بالأرقام .
- مسؤلياتنا في إفريقيا .
- الحكمة الحقيقية من الحج .

مرة ثالثة أعود إلى فلسفة الثورة .

أعود اليها بعد غيبة طويلة امتدت إلى أكثر من ثلاثة شهور حافلة بالأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة .

ثلاثة شهور حاولت خلالها أكثر من مرة أن أجد الساعات التى أسجل فيها هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ، فعصفت رياح الأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة بهذه المحاولات وبعثرتها في الفضاء .

ولكن الرياح التى عصفت بمحاولات التسجيل لم تعصف بالخواطر نفسها ، وصحيح أن هذه الخواطر لم تجر على ورق ، ولكنها ظلت تدور فى تفكيرى وتتفاعل مع غيرها وتبحث عن تفاصيل أخرى ، سواء فى ذاكرتى أو فى الأيام ، تضيفها إليها لتكمل بها صورة صحيحة واضحة .

ولكن ما الصورة الصحيحة الواضحة التى أريد أن أرسمها هذه المرة، وما علاقتها بالمحاولات التى قمت بها قبل ذلك في الجزء الأول ثم فى الجزء الثانى من هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ؟

لقد تحدثت في الجزء الأول عن بداية الثورة فى نفوسنا كأفراد وفي نفوسنا كنماذج عادية من شباب جيلنا ، وعن الثورة في تاريخ أمتنا ، وعن يوم ٢٣ يوليو فى هذه الثورة .

وفي الجزء الثانى تحدثت عن محاولات على طريق الثورة ، وكيف

حدد لنا تاريخ شعبنا هذا الطريق ، سواء فى نظرتنا المليئة بالعبر إلى الماضي ، أو فى تطلعنا المفعم بالأمل إلى المستقبل .

وإذن فقد كان حديثى فى الجزئين السابقين عن الزمان ، ومن هنا أشعر بأن المكان يطالب بحقه ، وإذن فليكن الحديث فى هذه المرة عنه .

★ ★ ★

وليس هدفى أن أدخل فى بحث فلسفى معقد عن الزمان والمكان ، وانما الذى لاشك فيه هو أن العالم كله ، لا وطننا فحسب ، هو نتيجة لتفاعل الزمان والمكان .

وإذا كنت أقول اننا في تصورنا لأحوال وطننا لا نستطيع أن ننسى عنصر الزمان ، فإننا أيضا وبنسبة متساوية لا نستطيع أن ننسى عنصر المكان .

وبعبارة أبسط :

نحن الآن لا نستطيع أن نعود إلى القرن العاشر ، نرتدى ملابسه التى تبدو لعيوننا غريبة مضحكة ، ونتوه في أفكاره التى تظهر أمامنا اليوم أطباقا من الظلام خلت من كل شعاع .

وكذلك نحن الآن لانستطيع أن نتصرف على أننا قطعة من «ألاسكا» المتعلقة بأقصى أصقاع الشمال ، أو على أننا جزيرة « ويك »

النائية المهجورة في تيه الباسفيك .

الزمان اذن يفرض علينا تطوره .

والمكان أيضا يفرض علينا حقيقته .

ولقد حاولت مرتين أن أمضى مع الزمان ، فلاحاول هذه المرة أن أتجول فى عالم المكان .

★ ★ ★

وثمـــة شيء يجب أن نتـسفق عليــه أولا وقــبل أن نمضى فى هذا الحديث، ذلك هو تعريف حدود المكان بالنسبة لنا .

إن قال لى أحد أن المكان بالنسبة لنا هو هذه العاصمة التى نعيش فيها فانى أختلف معه ...

وان قال لى أحد أن المكان بالنسبة لنا هو حدود بلادنا السياسية فانى أيضاً أختلف معه ...

ولو كان الأمر كله محصوراً فى حدود عاصمتنا أو فى حدود بلادنا السياسـيـة لهان الأمـر ، ولأقـفلنا على أنفسنا كل الأبواب وعشنا فى برج عاجى نحاول أن نبتعد به بقدر مانستطيع عن العالم ومشاكله وحروبه وأزماته تلك التى تقتحم علينا أبواب بلادنا وتؤثر فينا دون أن يكون لنا فيها

دخل أو نصيب .

لقد مضى عهد العزلة .

وذهبت الأيام التى كانت فيها خطوط الأسلاك الشائكة التى تخطط حدود الدول تفصل وتعزل .

ولم يعد مفر أمام كل بلد من أن يدير البصر حوله خارج حدود بلاده ليعلم من أين تجيئه التيارات التى تؤثر فيه ، وكيف يمكن أن يعيش مع غيره ، وكيف ... ؟ ، وكيف ... ؟

ولم يعد مفر أمام كل دولة من أن تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها فى المكان ، وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه وما هو مجالها الحيوى وميدان نشاطها ودورها الايجابى فى هذا العالم المضطرب .

★ ★ ★

وأنا أجلس أحياناً فى غرفة مكتبى وأسرح بخواطرى فى نفس هذا الموضوع أسائل نفسى :

– ما هو دورنا الايجابى فى هذا العالم المضطرب ؟ وأين هو المكان الذى يجب أن نقوم فيه بهذا الدور ؟

وأستعرض ظروفنا ، وأخرج بمجموعة من الدوائر لامفر لنا من أن

يدور عليها نشاطنا وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا .

ان القدر لايهزل ، وليست هناك أحداث من صنع الصدفة ، ولا وجود يصنعه الهباء .

ولن نستطيع أن ننظر إلى خريطة العالم نظرة بلهاء لاندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان .

أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها .. حقيقة وفعلا ولا مجرد كلام ؟

أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة أفريقية ، شاء لنا القدر أن نكون فيها، وشاء أيضا أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها ، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا ، سواء أردنا أو لم نرد ؟

أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالماً إسلامياً تجمعنا وإياه روابط لاتقربها العقيدة الدينية فحسب ، وانما تشدها حقائق التاريخ كذلك ؟

وكما قلت مرة : ان القدر لايهزل .

فليس عبثا أن بلدنا فى جنوب غرب آسيا يلاصق الدول العربية وتشتبك حياته بحياتها .

وليس عبثا أن بلدنا يقع فى شمال شرق أفريقيا ، ويطل من عل على القارة السوداء التى يدور فيها اليوم أعنف صراع بين مستعمريها البيض وأهلها السود من أجل مواردها التى لاتحد .

وليس عبثاً أن الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامى – الذى أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الإسلام القديمة – تراجع إلى مصر وأوى إليها فحمته مصر وأنقذته عندما ردت غزو المغول على أعقابه فى عين جالوت (١)

كل هذه حقائق أصيلة ذات جذور عميقة فى حياتنا ، لانستطيع مهما حاولنا ، أن ننساها أو نفر منها .

★ ★ ★

ولست أدرى لماذا أذكر دائما عندما أصل إلى هذه المرحلة من أفكارى وأنا جالس وحدى فى غرفتى شاردا مع الأفكار ، قصة مشهورة للشاعر الايطإلى الكبير « لو يدجى بيراندلو » أسماها ست شخصيات تبحث عن ممثلين !

إن ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولة مجيدة قاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحة .

وأن ظروف التاريخ أيضا مليئة بأدوار البطولة المجيدة التى لم تجد

الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه ، ولست أدرى لماذا يخيل إلى دائما أن فى هذه المنطقة التى نعيش فيهادورا هائما على وجهه يبحث عن البطل الذى يقوم به ، ثم لست أدرى لماذا يخيل إلى أن هذا الدور الذى أرهقه التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعباً منهوك القوى على حدود بلادنا يشير الينا أن نتحرك ، وأن ننهض بالدور ونرتدى ملابسه ، فان أحداً غيرنا لايستطيع القيام به وأبادر هنا فأقول ان الدور ليس دور زعامة .

إنما هو دور تفاعل وتجارب مع كل هذه العوامل يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة فى كل إتجاه من الإتجاهات المحيطة بها ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور ايجابى فى بناء مستقبل البشر .

★ ★ ★

وما من شك فى أن الدائرة العربية هى أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطاً بنا .

فلقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانينا معها نفس المحن ، وعشنا نفس الأزمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاه كانوا معنا تحت نفس السنابك (٢) .

وامتزجت هذه الدائرة معنا أيضا بالدين ، فنقلت مراكز الاشعاع الدينى ، فى حدود عواصمها ، من مكة ، إلى الكوفة ... ثم إلى القاهرة (٣) .

ثم جمعها الجوار فى إطار ربطته كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية .

وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسى ، أن طلائع الوعى العربى بدأت تتسلل إلى تفكيرى وأنا طالب فى المدرسة الثانوية أخرج مع زملائى فى اضراب عام فى الثانى من شهر نوفمبر من كل سنة احتجاجاً على وعد بلفور الذى منحته بريطانيا لليهود ومنحتهم به وطنه قومياً فى فلسطين اغتصبته ظلماً من أصحابه الشرعيين (٤) .

★ ★ ★

وحين كنت أسائل نفسى فى ذلك الوقت : لماذا أخرج فى حماسة ؟

ولماذا أغضب لهذه الأرض التى لم أرها ؟

لم أكن أجد فى نفسى سوى أصداء العاطفة .

ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيرى حول هذا الموضوع لما بدأت وأنا طالب فى الكلية الحربية أدرس تاريخ حملات فلسطين ومشاكل البحر وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التى جعلت منها فى القرن

الأخير فريسه سهله تتخاطفها أنياب مجموعة من الوحوش الجائعة !

ثم بدأ الفهم يتضح وتتكشف الأعمدة التى تترتكز عليها حقائقه .

ولما بدأت أزمة فلسطين ، كنت مقتنعاً فى أعماقى بأن القتال فى فلسطين ليس قتالا فى أرض غريبة ، وهو ليس انسياقا وراء عاطفة ، وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس !

★ ★ ★

وأذكر يوماً ، عقب صدور قرار تقسيم فلسطين فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعاً (٥) ، واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة فى فلسطين ، وذهبت فى اليوم التالى أطرق باب بيت الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين – وكان ما يزال يعيش فى الزيتون – وأقول له :

إنكم فى حاجة إلى ضباط يقودون المعارك ويدربون المتطوعين ، وفى الجيش المصرى عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع ، وهم تحت أمرك فى أى وقت تشاء !

وقال لى الحاج أمين الحسينى انه سعيد بهذه الروح ، ولكنه يرى أن يستأذن الحكومة المصرية قبل أن يقول شيئاً ثم قال لى الحاج أمين :

– سوف أعطيك ردى بعد استئذان الحكومة .

وعـدت اليـه بعـد أيام ، وكـان رده ، الرد الذى حـصل عليـه من الحكومة هو الرفض (٦) !

ولم نسكت ...

وبعدها كانت مدفعية أحمد عبد العزيز تدك المستعمرات اليهودية جنوبى القدس . وكان قائد المدفعية هو كمال الدين حسين عضو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار التى تحولت اليوم إلى مجلس قيادة الثورة .

وأذكر سراً آخر كان ذات يوم أغلى أسرار الضباط الأحرار .

كان حسن إبراهيم (٧) قد سافر إلى دمشق واتصل ببعض ضباط فوزى القاوقجى (٨) ، وكان القاوقجى يقود قوات التحرير العربية ويستعد لمعركة حاسمة فاصلة فى المنطقة الشمالية من فلسطين .

ووضع حسن إبراهيم ، وعبد اللطيف بغدادى (٩) ، خطة جريئة للقيام بعمل حاسم فى المعركة التى تستعد لها قوات التحرير .

وكانت الخطوط البارزة فى تلك الخطة هى أن قوات التحرير العربية لاتملك طيراناً يساعدها فى المعركة ويرجح النصر إلى كفتها ، ولو أنها حصلت على معونة من الجو بضرب مركّز فوق ميدان العملية ، لكان ذلك عاملا فاصلا ، ولكن من أين لقوات التحرير العربية بالطيران لتحقيق هذا الحلم ؟

ولم يتردد حسن ابراهيم وعبد اللطيف بغدادى ، وإنما قررا أن يقوم سلاح الطيران المصرى بهذه المهمة .

ولكن كيف ؟

ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين ، وكان جو الرقابة على القوات المسلحة – بما فيها سلاح الطيران – حذرا متيقظا ! ومع ذلك لم يجد اليأس ثغرة ينفذ منها إلى تفاصيل الخطة . بدأت فى مطار سلاح الطيران حركة عجيبة .. وبرز فيها نشاط واسع لإصلاح طائرات وإعدادها، وجهود واضحة فى التدريب سرت كالحمى فى نفوس عدد من الطيارين .

ولم يكن هناك إلا قلائل يعرفون السر ...

يعرفون أن الطائرات وقوادها قد أعدوا ليوم تجيء فيه من سوريا إشارة سرية ، ينطلقون بعدها إلى الجو ليشتركوا بكل قوتهم فى معركة حاسمة على الأرض المقدسة ، ثم يتجهون بعد ذلك إلى مطار قرب دمشق، ينزلون فيه ويترقبون الأحوال فى مصر ، ويتعرفون صدى هذه الحركة التى أقدموا عليها ، ثم يقررون كيف يتصرفون بعدها !

وكان أرجح الاحتمالات أن يحاكم كل طيار اشترك فى هذه العملية . . وأذكر أن كثيرين كانوا قد رتبوا أمورهم على أن الظروف ربما

تحول بينهم وبين العودة إلى الوطن قبل سنوات قد تطول وتمتد ...

وكان شعورنا فى اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار والمؤكد أن نفس الشعور كان يراود خواطر كل الطيارين المشتركين فى السر الكبير – أن هذه المخاطرة الجريئة لم تكن حباً فى المغامرة ، ولا كانت رد فعل للعاطفة فى نفوسنا ، إنما كانت وعيا ظاهرا لإيماننا بأن رفح (١٠) ليست آخر حدود بلادنا ، وأن نطاق سلامتنا يقضى علينا أن ندافع عن حدود اخواننا الذين شاءت لنا أحكام القدر أن نعيش معهم فى منطقة واحدة .

ولم تتم الخطة يومها .. لأننا لم نتلق الإشارة السرية من سوريا .

وقضت الظروف بعدها أن تدخل الجيوش العربية كلها الحرب فى فلسطين .

ولست أريد أن أدخل فى تفاصيل حرب فلسطين – الآن – فذلك بحث تتشعب فيه الأحاديث ، وإنما يعنينى من حرب فلسطين درس عجيب .

لقد دخلتها شعوب العرب جميعاً بدرجة واحدة من الحماسة ، وإذن فهذه الشعوب جميعاً تتشارك فى شعورها وفى تقديرها لحدود سلامتها .

ثم خرجت منها هذه الشعوب بنفس المرارة والخيبة ؛ وإذن فهى جميعاً ، كل منها فى بلاده ، قد تعرضت لنفس العوامل وحكمتها نفس القوى التى ساقتها إلى الهزيمة ونكست رأسها بالذل والعار .

ولقد خلوت إلى نفسى مرات كثيرة فى خنادق عراق المنشية (١١) وفى جحورها .

وكنت يومها أركان حرب الكتيبة السادسة التى كانت تقف فى ذلك القطاع وتدافع عنه أحيانا وتهاجم فى أكثر الأحيان .

وكنت أخرج إلى الأطلال المحطمة من حولى بفعل نيران العدو ، ثم أسبح بعيداً مع الخيال .

وأحياناً كانت الرحلة مع الخيال تمضى بى بعيداً إلى آفاق النجوم ، فأطل من هذا الارتفاع الشاهق على المناطق كلها .

وكانت الصورة تبدو فى ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتى . هذا هو المكان الذى نقبع محاصرين فيه ، هذه مواقع كتيبتنا ، وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على الخط .

وهذه قوات العدو تحيط بنا . وهذه قوات أخرى لنا ... هى أيضا محاصرة لا تستطيع الحركة الواسعة وإن بقى لها مجال للمناورة المحدودة .

إن الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التى نتلقى منها الأوامر تحيطها بحصار وتلحق بها عجزاً أكثر من الذى تصنعه بنا نحن القابعين فى منطقة الفالوجة .

ثم هذه قوات اخواننا فى السلاح وفى الوطن الكبير وفى المصلحة المشتركة وفى الدافع الذى جعلنا نهرول إلى أرض فلسطين ...

هذه هى جيوش اخواننا ... جيشاً جيشاً .. كلها هى أيضاً محاصرة ... بفعل الظروف التى كانت تحيط بها والتى كانت تحيط بحكوماتها .. لقد كانت جميعا تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها ولا إرادة إلا بقدر ما تحركها أيدى اللاعبين .

وكانت شعوبنا جميعا تبدو فى مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة أخفت عنها عمدا حقيقة ما يجرى ، وضللتها حتى عن وجودها نفسه .

★ ★ ★

وأحيانا كنت أهبط من ارتفاع النجوم إلى سطح الأرض ، فأحس أننى أدافع عن بيتى وعن أولادى ، ولا تعنينى أحلامى الموهومة والعواصم والدول والشعوب والتاريخ !

وكان ذلك عندما ألتقى فى تجوالى فوق الأطلال المحطمة ببعض أطفال اللاجئين الذين سقطوا فى براثن الحصار بعد أن خربت بيوتهم وضاع كل ما يملكون ، وأذكر بينهم طفلة صغيرة كانت فى مثل عمر إبنتى ، وكنت أراها وقد خرجت إلى الخطر والرصاص الطائش مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش أو خرقة قماش .

وكنت دائماً أقول لنفسى :

- قد يحدث هذا لأبنتى !

وكنت مؤمناً بأن الذى يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث - وما زال احتمال حدوثه قائماً - لأى بلد فى هذه المنطقة ما دام مستسلماً للعوامل والعناصر والقوى التى تحكمه الآن .

★ ★ ★

ولما انتهى الحصار وانتهت المعارك فى فلسطين وعدت إلى الوطن ، كانت المنطقة كلها فى تصورى قد أصبحت كلاً واحداً . وأيدت الحوادث التى جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد فى نفسى . كنت أتابع تطورات الموقف فيها فأجده أصداءً يتجاوب بعضها مع بعض .

كان الحادث يقع فى القاهرة، فيقع مثيل له فى دمشق غداً ، وفى بيروت ، وفى عمان ، وفى بغداد ، وغيرها (١٢) .

وكان ذلك كله طبيعياً مع الصورة التى رسمتها التجارب فى نفسى .

منطقة واحدة ، ونفس الظروف ، ونفس العوامل ... بل ونفس القوى المتألبة عليها جميعاً !

وكان واضحاً أن الاستعمار هو أبرز هذه القوى . حتى إسرائيل نفسها، لم تكن إلا أثراً من آثار الاستعمار .

فلو لا أن فلسطين وقعت تحت الانتداب البريطانى ما استطاعت الصهيونية أن تجد العون على تحقيق فكرة الوطن القومى فى فلسطين ، ولظلت هذه الفكرة خيالا مجنوناً ليس له أى أمل فى واقع .

★ ★ ★

وأنا أكتب هذه الخوطر وأمامى مذكرات حاييم وايزمان رئيس جمهورية إسرائيل ومنشئها الحقيقى ، وهى المذكرات التى نشرها فى كتابه المشهور « التجربة والخطأ » وثمة عبارات معينة ذات طابع خاص تستوقفنى فيه .

يستوقفنى قول وايزمان :

« لقد كان يجب أن تساعدنا دولة كبرى ، وكانت فى العالم دولتان تستطيع كل منهما مساعدتنا : ألمانيا وبريطانيا ... » أما ألمانيا فقد آثرت أن تبتعد عن كل تدخل ...

« وأما بريطانيا فقد أحاطتنا بالرعاية والعطف » .

ويستوقفنى بعد ذلك قول وايزمان :

« ولقد حدث فى المؤتمر الصهيونى السادس الذى عقدناه فى سويسرا، أن وقف هرتزل يعلن يهود الدنيا أن بريطانيا العظمى وحدها دون كل دول الأرض ، قد اعترفت باليهود كأمة ذات كيان

مستقل، منفصلة عن غيرها ، وأننا نحن اليهود خليقون بأن يكون لنا وطن، وبأن تكون لنا دولة ، وقرأ هرتزل خطابا من اللورد لاترسون نائبا عن الحكومة البريطانية يتضمن هذا المعنى . وكان هذا الخطاب يقدم لنا أرض أوغندا لتكون وطناً قومياً ».

وقرر أعضاء المؤتمر قبول هذا العرض .

« ولكننا بعد ذلك كتمنا أنفاسه في المهد ودفناه دون ضجة . وعادت بريطانيا تريد أن تسترضينا ... »

« وعلى أثر هذا العرض ألفنا لجنة من عدد كبير من علماء اليهود سافروا إلى مصر لدراسة منطقة سيناء ، وقابلوا فى القاهرة اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر الذى أظهر كل العطف على أمانينا فى الوطن القومى » .

ولكن اللجنة لم تجد فى منطقة سيناء ما يفى بالغرض الذى كنا من أجله نريد الوطن القومى ».

« ولقد قابلت بعدها لورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الذى بادر بسؤالى على الفور :

– لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومى فى أوغندا ؟

« وقلت لبلفور :

– إن الصهيونية حركة سياسية قومية . هذا صحيح ، ولكن الجانب الروحى منها لا يمكن إغفاله ، وأنا واثق تمام الوثوق أننا إذا أغفلنا الجانب الروحى فإننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسى القومى .

– ماذا تقول لو أن أحدا قال لك خذ باريس بدلا من لندن هل تقبل ؟» .

★ ★ ★

ويستوقفنى أيضاً قول وايزمان :

« وعدت إلى لندن فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ ، وكان الغرض من رجوعى أننى دعيت إلى لندن لأشرف على كتابة مشروع وثيقة الانتداب البريطانى فى فلسطين » .

« وكان يجب أن تعرض هذه المسودة على عصبة الأمم لتصدر بها قراراً ، بعد أن وافق مؤتمر سان ريمو على فكرة الانتداب نفسها » .

« وكان لورد كيرزون قد ولى وزارة الخارجية محل بلفور وكان هو المسؤل عن وضع هذه الوثيقة ، وكان معنا فى لندن القانونى الشهير ابن كوهين ، وهو من أقدر واضعى الصيغ القانونية فى العالم ، وكان ايريك فوريس آدام سكرتير كيرزون يتعاون معنا » .

« ووقع بيننا وبين كيرزون خلاف أول وأخير » :

« كتبنا نحن فى مشروع الوثيقة عبارة أردنا أن نقيد بريطانيا بوعد بلفور ، وبأن تكون خطتها فى فلسطين قائمة على أساس الوطن القومى لليهود ، وكان نص العبارة التى كتبناها نحن : »

« والاعتراف بحقوق اليهود التاريخية فى فلسطين » .

« وقال كيرزون أنه يقترح تخفيف العبارة حتى لا يهيج العرب عند قراءتها ، وقال أنه يرى أن تكون كما يلى :

« والاعتراف بصلات اليهود وعلاقتهم التاريخية فى فلسطين »

وكنت أود أن أستطرد طويلا مع وايزمان فى « التجربة والخطأ » ، ولكننا جميعا نعلم أن هذه الحوادث القديمة كانت الجراثيم الأولى للمضاعفات التى مزقت كيان فلسطين ودمرت وجودها !

★ ★ ★

وأعود إلى الذى كنت أقوله من أن الاستعمار هو القوة الكبرى التى تفرض على المنطقة كلها حصاراً قاتلاً غير مرئى ، أقوى وأقسى مائة مرة من الحصار الذى كان يحيط بخنادقنا فى « الفالوجة » وبجيوشنا وبحكوماتنا فى العواصم التى كنا نتلقى منها الأوامر !

★ ★ ★

ولقد بدأت بعد أن أستقرت كل هذه الحقائق فى نفسى ، أومن بكفاح واحد مشترك وأقول لنفسى :

– ما دامت المنطقة واحدة ، وأحوالها واحدة ، ومشاكلها واحدة ، ومستقبلها واحد ... والعدو واحداً مهما حاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة – فلماذا تتشتت جهودنا ؟

ثم زادتنى تجربة ما بعد ثورة ٢٣ يوليو إيماناً بهذا الكفاح الواحد .

فلقد بدأت خبايا الصورة تتكشف ، والظلام الذى كان يحيط بتفاصيلها ينقشع .

وأعترف أنى كذلك بدأت أرى العقبات الكبرى التى تسد الطريق إلى الكفاح الواحد ، ولكنى بدأت أؤمن بأن هذه العقبات نفسها ينبغى أن تزول، لأنها من صنع ذلك العدو الواحد نفسه .

★ ★ ★

ولقد بدأت أخيرا فى اتصالات سياسية من أجل توحيد الكفاح مهما كانت وسيلته ، وخرجت بعد شهر من هذه الاتصالات بنتيجة هامة ، هى أن العقبة الأولى فى طريقنا هى « الشك » ، وكان واضحا أن بذور هذا الشك قد بذرها فى نفوسنا ذلك العدو الواحد نفسه ، لكى يحول بيننا وبين الكفاح الواحد !

وأذكر أنى جلست فى الأيام الأخيرة أتحدث مع أخ من ساسة العرب، وكان معنا زميل له ، وبدأت أتكلم ، وبدأ هو يرد على الذى أقوله ؛ وكان يقول العبارة ثم يلتفت إلى زميله ليرى أثر الذى يقوله فى وجهه ، بدل أن يحاول استكشاف أثره فى أنا .

وبدأت أقول له : تغلب على كل ما فى نفسك من شكوك ، وقل لى كل ما فى قلبك ، وانظر إلىّ وفى عينى ولا تدر وجهك : ولست أريد بذلك أن أهون من أمر العقبات التى تحول بيننا وبين توحيد الكفاح ، فلا شك أن بعضها معقد تمتد أصوله إلى طبيعة البيئة وظروف شعوبها التاريخية والجغرافية ؛ ولكن المؤكد أنه يمكن مع شئ من المرونة القائمة على بعد النظر ، لا على التفريط ، إيجاد الخط الذى يستطيع الجميع أن يقفوا فيه ، بلا تحرج ، وبلا عنت ، لمواجهة الكفاح الواحد .

★ ★ ★

ولست أشك دقيقة أن كفاحنا الواحد يمكن أن يعود علينا وعلى شعوبنا بكل الذى نريده لها ونتمناه .

ولسوف أظل دائما أقول اننا أقوياء ولكن الكارثة الكبرى أننا لا ندرك مدى قوتنا !

إننا نخطئ فى تعريف القوة ؛ فليست القوة أن تصرخ بصوت عال ، انما القوة أن تتصرف إيجابيا بكل ما تملك من مقوماتها .

وحين أحاول أن أحلل عناصر قوتنا لا أجد مفرامن أن أضع ثلاثة مصادر بارزة من مصادرها يجب أن تكون أول ما يدخل فى الحساب .

(أ) أول هذه المصادر أننا مجموعة من الشعوب المتجاورة ، المترابطة بكل رباط مادى ومعنوى يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب ، وأن لشعوبنا خصائص ومقومات وحضارة انبعثت فى جوها الأديان السماوية المقدسة الثلاثة . ولا يمكن قط أغفالها فى محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام . هذا هو المصدر الأول .

(ب) أما المصدر الثانى فهو أرضنا نفسها ومكانها على خريطة العالم، ذلك الموقع الاستراتيجى الهام الذى يعتبر بحق ملتقى طرق العالم ، ومعبر تجارته ، وممر جيوشه .

(جـ) يبقى المصدر الثالث ، وهو البترول الذى يعتبر عصب الحضارة المادية ، والذى بدونه تستحيل كل أدواتها – المصانع الهائلة الكبيرة لكافة أنواع الإنتاج ، وسائل المواصلات فى البر والبحر والجو ، أسلحة الحرب سواء فى ذلك الطائرات المحلقة فوق السحاب أو الغواصة المتسترة تحت أطباق الموج – تستحيل كلها قطعا من الحديد يعلوها الصدأ لا تنبعث منها حركة ... أو حياة .

★ ★ ★

وبودى لو وقفت قليلاً عند البترول . فلعل وجوده كحقيقة مادية تقررها الاحصائيات والأرقام يصلح ليكون نموذجا للمناقشة فى أهمية مصادر القوة فى بلادنا .

ولقد قرأت أخيراً رسالة طبعتها جامعة شيكاغو عن ظروف البترول ، وبودى لو كان لكل فرد من أفراد شعوبنا أن يقرأها ويتدبر معانيها ويسرح بفكره فى المعنى الكبير الكامن وراء أرقامها وإحصائياتها .

★ ★ ★

تقرر هذه الرسالة مثلا أن العمل لاستخراج بترول البلاد العربية لايتكلف كثيرا من المال .

لقد صرفت شركات البترول ٦٠ مليونا من الدولارات فى كولومبيا ابتداء من سنة ١٩١٦ ولم تعثر على قطرة زيت إلا فى سنة ١٩٣٦ .

وصرفت هذه الشركات ٤٤ مليونا من الدولارات فى فنزويلا ولم تحصل على قطرة من الزيت الا بعد مرور ١٥ سنة .

وصرفت هذه الشركات ٣٩ مليونا من الدولارات فى جزر الهند الهولندية وأخيرا عثرت على الزيت .

وكانت النتيجة الأخيرة التى قررتها هذه الرسالة فى هذا الموضوع :

أن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى أمريكا هو ٧٨ سنتا .

وإن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى أمريكا الجنوبية هو ٤٣ سنتا .

وإن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى البلاد العربية هو ١٠ سنتات .

إن عاصمة إنتاج البترول فى العالم قد انتقلت من الولايات المتحدة التى استنزفت آبارها وارتفع سعر الأرض فيها وزادت أجور الأيدى العاملة لأبنائها ، إلى المنطقة العربية التى مازالت آبارها بكرا ، والتى مازالت أراضيها الشاسعة بلا ثمن ، والتى مازالت يدها العاملة تقبل ما دون الكفاف .

ولقد ثبت أن نصف الاحتياطى المحقق من البترول فى العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية ، والنصف الباقى موزع بين الولايات المتحدة وروسيا ومنطقة الكاريبى وغيرها من بلاد العالم .

وثبت أيضا أن متوسط إنتاج البئر الواحدة فى اليوم من الزيت هو :

١١ برميلا فى الولايات المتحدة

٢٣٠ برميلا فى فنزويلا .

٤٠٠ برميل فى المنطقة العربية .

هل أوضحت مدى أهمية هذا العنصر من عناصر القوة ؟ أرجو أن أكون قد وفقت .

وإذن فنحن أقـوياء ، أقـوياء ليس فى علو صـوتنا حين نولول ، ولا حين نصـرخ ، ولا حين نستغيث ، إنما نحن أقـوياء حين نهـدأ ، وحين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل ، وفهمنا الحقيقى لقوة الرابطة بيننا ، هذه الرابطة التى تجعل من أرضنا منطقة واحدة لايمكن عزل جزء منهـا عن كلها ، ولايمكن حماية مكان منها بوصفه جزيرة لا تربطها بغيرها رابطة .

★ ★ ★

هذا عن الدائرة الأولى التى لا مـفر من أن ندور عليها وأن نحـاول الحركة فيها بكل طاقتنا ، وهى الدا

فـإذا اتجـهت بعـد ذلك إلى الدائرة الثـانيـة ، وهى دا

الأفريقيـة، قلت دون استفاضة ودون إسهاب : إننا لن نستطيع بحال الأحوال - حتى لو أردنا - أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الأفريقيين .

لانستطيع لسبب هام وبدهى ، هو أننا فى أفريقيا .

ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع إلينا ، نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة ، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله .

ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا فى المعاونه بكل ما نستطيع على نشر الوعى والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء .

ويبقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة .

ويبقى أيضا أن السودان – الشقيق الحبيب – تمتد حدوده الى أعماق أفريقيا ، ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة فى وسطها .

والمؤكد أن أفريقيا الآن مسرح لفوران عجيب مثير ، وأن الرجل الأبيض الذى يمثل عدة دول أوربية يحاول الآن إعادة تقسيم خريطتها ، ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذى يجرى فى أفريقيا ونتصور أنه لا يمسنا ولا يعنينا .

★ ★ ★

ولسوف أظل أحلم باليوم الذى أجد فيه فى القاهرة معهدا ضخما لأفريقيا ، يسعى لكشف نواحى القارة أمام عيوننا ويخلق فى عقولنا وعيا أفريقيا مستنيرا ، ويشارك مع كل العاملين من كل أنحاء الأرض على تقدم شعوب القارة ورفاهيتها (١٣).

ثم تبقى الدائرة الثالثة ... الدائرة التى تمتد عبر قارات ومحيطات ، والتى قلت انها دائرة اخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة ، وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات .

ولقد ازداد إيمانى بمدى الفاعلية الايجابية التى يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الإسلامى بين جميع المسلمين ، أيام ذهبت مع البعثة المصرية إلى المملكة العربية لتقديم العزاء فى وفاة عاهلها الراحل الكبير (١٤) .

★ ★ ★

ولقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخواطرى تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام ، ثم وجدتنى أقول لنفسى :

« يجب أن تتغيير نظرتنا إلى الحج ، لا يجب أن يصبح الذهاب إلى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد ، أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة » .

★ ★ ★

يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم إلى متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صوراً طريفة لقراء الصحف ، وانما بوصفه مؤتمراً سياسياً دورياً يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلامية ، ورجال الرأى فيها ، وعلماؤها فى كافة أنحاء المعرفة ، وكتابها، وملوك الصناعة فيها ، وتجارها ، وشبابها ؛ ليضعوا فى هذا البرلمان الإسلامى العالمى خطوطا عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معاً ، حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام .

يجتمعون خاشعين ... ولكن أقوياء ؛ متجردين من المطامع .... لكن عاملين ؛ مستضعفين لله ... ولكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم ، حالمين بحياة أخرى ... ولكن مؤمنين بأن لهم مكانا تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله فى هذه الحياة .

وأذكر أنى قلت بعض خواطرى هذه لجلالة الملك سعود ، فقال لى الملك :

– إذن هذه هى فعلاً ، الحكمة الحقيقية فى الحج .

وفى الحق أنى لا أستطيع أن أتصور للحج حكمة أخرى .

★ ★ ★

وحين أسرح بخيالى إلى ثمانين مليونا من المسلمين في أندونيسيا ، وخمسين مليونا فى الصين ، وبضعة ملايين فى الملايو وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون فى باكستان ، وأكثر من مائة مليون فى منطقة الشرق الأوسط ، وأربعين مليونا داخل الاتحاد السوفيتى ، وملايين غيرهم فى أرجاء الأرض المتباعدة حين أسرح بخيالى إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، أخرج بإحساس كبير بالإمكانيات الهائلة التى يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لايخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولاخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة .

★ ★ ★

ثم أعود الى الدور التائه الذى يبحث عن بطل يقوم به ... ذلك هو الدور ، وتلك هى ملامحه ، وهذا هو مسرحه ... ونحن وحدنا بحكم « المكان » نستطيع القيام به .

هوامش الجزء الثالث

١ – دمر المغول فى طريقهم إلينا كل مقومات الحضارة في البلاد التي وطئتها أقدامهم ، ثم دمرتهم مصر ، ، فصار عليها وحدها أن تحمي تراث الحضارة ، وأن تنشر آثارها ، فقد ذهب كل التراث ، في كل البلاد ، ولم يبق إلا فى مصر ...

وقد عرفت مصر واجبها في هذا الشأن ، فأعادت الخلافة العباسية ، وآوتها ، وحفظت لها رسومها وحقها في التوجيه والنصح والإرشاد ، ولاءمت بين حالة مصر السياسية في ذلك الزمان وبين واجبها هذا الجديد ، فلم تلبث أن صارت حاضرة الإسلام ، عليها عبء التوجيه العام في كل بلاد المسلمين ومن علومها وفنون حضارتها يقتبس المسلمون في شتي بقاع الأرض، وباسمها يتغني كل عربي وكل مسلم في الشرق والغرب .

٢ – (أ) حين زحف الصليبيون على بلادنا ، كانت فلسطين ، ولبنان، وسوريا ، ومصر ، وشمال أفريقيا ، هدفا مشتركا من أهداف الاستعمار الصليبي .

(ب) وحين زحف المغول على بلاد المسلمين والعرب ، كانت مصر هدف المغول الأخير ، بعد أن دمرت بغداد ووطئت بلاد الشام جميعا ...

(جـ) وحين أغار العثمانيون علي بلادنا وسلبونا استقلالنا فى القرن السادس عشر ، فعلوا مثل ذلك بالشام ، والعراق ، والجزيرة العربية وشمال أفريقيا ، إلى حدود مراكش ...

(د) حين بدأ الاستعمار الأوروبى بمصطلحاته الجديدة – يبسط سلطانه على بلادنا ، لم يستثن بلدا واحدا فى بلاد العرب .

٣ - نشأ الإسلام بمكة ، ثم هاجر النبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة فصارت هى عاصمة الإسلام فى عصر النبى والخلفاء الثلاثة من بعده ، ثم صارت الكوفة هى عاصمة الإسلام في خلافة على ، ثم صارت دمشق ، ثم صارت بغداد ، ثم انتقلت الخلافة والخليفة الى القاهرة فى القرن السابع الهجرى ، بعد أن دمر المغول بغداد !

٤ - كان أول عدوان لبريطانيا علي حق العرب في فلسطين ، أن وزيرها « بلفور» وعد اليهود في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، بأن يتيح لهم وطنا قوميا في فلسطين ، ثمنا لما أدوا لبريطانيا من خدمات في الحرب العالمية الأولى ، ولكنه ثمن يؤديه من غير ما يملك ...

ومنذ ذلك التاريخ ، اعتبر يوم ٢ نوفمبر من كل عام ، يوما مشئوما من أيام العرب ، يعلنون فيه سخطهم علي غدر بريطانيا ، وحرصهم علي الإحتفاظ بفلسطين عربية لإهلها .

٥ - لما اشتدت مقاومة العرب فى فلسطين للإستعمار الصهيونى ، أرادت بريطانيا أن تعالج الأمر على وجه ما ، لتكسر حدة المقاومة العربية ، فاستصدرت قرارا من الأمم المتحدة فى سنة ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، فأبى العرب أن تمزق وحدة بلادهم ، وازدادوا هياجا وثورة ، وثارت لثورتهم البلاد العربية جميعا .. وخلال هذه الثورة ، كان الضباط الأحرار فى مصر يدبرون أمرهم ليقوموا بواجبهم فى الكفاح من أجل عروبة فلسطين ...

٦ – كان رئيس حكومة مصر فى ذلك التاريخ ، هو محمود فهمى النقوشي .

٧ – هو عضو مجلس قيادة الثورة ، ووزير الدولة في حكومة الثورة .

٨ – هو مجاهد عربى ، أصله من لبنان ، وكان له بلاء مشهود فى معارك فلسطين وهى لم تزل تحت الإنتداب البريطاني ، ثم كان قائدا لقوات التحرير العربية في حرب فلسطين .

٩ – هو عضو مجلس قيادة الثورة ، ووزير الحربية ، ثم وزير الشئون البلدية والقروية فى حكومة الثورة ، وهو – كزميله حسن ابراهيم ضابط طيران .

١٠ – آخر الحدود المصرية على حدود فلسطين وهى مدينة مصرية . ويوجد أيضا رفح الفلسطينيه .

١١ – منطقة الفالوجة ، وكان لحاميتها بلاء عظيم في الدفاع عنها . فقد صمدت لحصار العدو أشهراً بلا زاد ولا عتاد ، حتي ضاق المحاصرون ذرعاً ولم ينفذ صبرالمحصورين أو تضعف نفوسهم . وقد عرفت مصر لأبطال الفالوجة بلاءهم في هذه المعركة فاستقبلتهم استقبالا عظيما، وكان اسمهم علي كل لسان في مصر وفي كل بلد عربي ... وكان بينهم جمال عبد الناصر .

١٢ – كان مصرع محمود فهمى النقراشي في القاهرة ، ومصرع رياض الصلح في لبنان ، ومصرع الملك عبد الله في عمان ، وثورة حسني الزعيم في دمشق ، ثم الثورة المصرية الكبري في سنة ١٩٥٢ ، وكلها أصداء متجاوبة تتصل بأسباب من نكبة فلسطين .

١٣- تم إنشاء معهد الدراسات الأفريقية فى ١٩٦٠

١٤ - توفي الملك عبد العزيز آل سعود فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٧٤ (نوفمبر سنة ١٩٥٣) .

الناشر : بيت العرب للتوثيق العصري